طَوْقُ النَّجَاة

تأليف

أبو أحمد

كمال أحمد عبد السلام

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٠٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoroko_2@yahoo.com

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: طوق النجاه

إعداد: كمال أحمد عبد السلام

رقم الإيداع:

الطبعة الأولى ٢٠١٣

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ - ٠٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoroko_2@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه.

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾} [النساء: ١].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾} [آل عمران: ١٠٢].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد..

فإن ابن آدم ينظر إلى الدنيا وكأنها دار مقام وبقاء، وليست دار زوال وفناء، وكأنه مخلدٌ فيها خلودًا أبديًا فيحرصُ على الظلم والتعدي على الآخرين، ويحرصُ على الجور وأخذ حق الضعفاء والمستضعفين، فلو علم علمًا يقينيًا أنه ليس مخلدًا فيها، وأنه مهما طال عمره فهو إلى زوال، ما ظلم وما تعدى على غيره، لأن نشوة النفس وظلمها لنفسها جعلته ينس حقيقة الموت وأنه مدركه لا محالة كما جاء في قوله تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ} [النساء: ٧٨].

{قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ} [الأحزاب: ١٦].

فمهما فرَّ ابن آدم من الموت فهو ملاقيه، لأن الفرار لا يؤخرُ آجالاً، ولا يُطَوِّلُ أعمارًا، كما جاء في قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ} [الجمعة: ٨]، إذن فعشق المرء للدنيا يعميه عن عيوبها ليجعله متمسكًا بتلابيبها وأزيالها وبريق زخارفها الزائلة، ليصبح هلاكه على يد معشوقته التي أوقعته في حبائلها الدائبة التي تهوي به بعد معترك الحياة ونشوتها إلى السقوط في الهاوية عند أول درجة من درجات سُلَّمِ المحاسبة من الله تعالى، لأن ميزان ابن آدم يتزُن عند المفاضلة بين العاجلة والآجلة، كما جاء في قوله تعالى: {مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾} [الإسراء: ١٨ - ٢١].

أي: من كان هَمُّهُ وَسَعْيُهُ لهذه الدنيا العاجلة الفانية لا يريد إلَّاها ولا يبتغي سِوَاهَا، فَيُعَجِّلُ الله له فيها ما يشاء لمن يريد ليبسطها له، أَوْ يُقَتِّرُهَا عليه، فيصبح هلاكه لمن طلب ذلك على يديها، أما من أراد الآخرة وعمل لها، ولزم نفسه على طاعة الله ورسوله ﷺ وعمل لما يرضي ربه، فأولئك أصبحت أعمالهم مشكورة من الله تعالى فأصبح جزاءهم من جنس أعمالهم، لذلك لا يعرف المرء الغبن الحق إلا عند انقضاء أجله، فقد جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري وابن ماجة من حديث ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، وَالْفَرَاغُ» [1].

(١) أخرجه البخاري: (٦٤١٢)، وابن ماجه (٤١٧٠).

أي: هاتان النعمتان مجبولٌ عليهما كثيرًا من الناس في صحة البدن وفراغ الخاطر، ولا يعرف قدر هاتين النعمتين الكثير من الناس إلا ما رحم ربي، لأنه عندما تضيع الأعمار وتصبح إلى زوال، فلا فائدة فيما حَصَّلَهُ من الدنيا إلا عمله الصالح، لذا فلا يدرك المرء الغبن حقًا إلا عند انقضاء الآجال كما قال تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ} [التغابن: ٩]، فقد جاء في الطبراني الكبير والبيهقي في شعب الإيمان من حديث معاذ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ يَتَحَسَّرُ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلا عَلَى سَاعَةٍ مَرَّتْ بِهِمْ لا يَذْكُرُونَ اللهَ ﷻ فِيهَا» (١).

فَسَلِ اللهَ عبد اللهِ دَوْمًا قبل يوم التغابن، واعتصم به قبل اعتصامك بالدنيا، فمن اعتصم بالدنيا، فكأنه اعتصم بالسراب الخادع، أو العاصفة الغير آمنة التي تهب على غير توقع لتخلع قلب المرء فجأةً، فإذا لم يتحصن بوعيهِ الدينيِّ أردته إلى حيث يكره، فإذا أردت أن تعتصم فاعتصم بالله وبكتابه وسنة نبيه ﷺ كما جاء في قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣].

سَلِ الْوَاحَةَ الْخَضْرَاءَ وَالْماءَ جَارِيَا ::: وَهذِي الصَّحَارِى وَالجِبَالَ الرَّوَاسِيَا
سَلِ الرَّوْضَ مُزْدَانًا. سَلِ الزَّهْرَ وَالنَّدَا ::: سَلِ اللَّيْلَ وَالْإِصْبَاحَ وَالطَّيْرَ شادِيَا
وَسَلْ هَذِهِ الْأَنْسَامَ وَالْأَرْضَ وَالسَّمَا ::: وَسَلْ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعِ التَّوْحِيدَ لِلَّهِ سَارِيَا
فَلَوْ جَنَّ هَذَا اللَّيْلُ وَامْتَدَّ سَرْمَدَا ::: فَمَنْ غَيْرُ رَبِّي يُرْجِعُ الصُّبْحَ ثَانِيَا؟

فمن غير ربي يرجع الأمن والأمان في مِصْرَ ثانيا. بعد أن بات لنا واضحًا أن القصاص لا يُؤْتَى بأحكامِ الشريعة، بل أصبح القصاص يأتي بحكم شريعة الغاب، لأن ما شهدناه في محافظة الشرقية وما قام به بعض الناس في موقف السيارات بالمحافظة، حيث قاموا بقتل من

(١) السلسلة الصحيحة برقم: (٢١٩٧)، وصحيح الجامع برقم: (٥٤٤٦).

شَكُّوا أنهم بلطجية، ثم ربطوا أقدامهم بالحبال، وقاموا بتعليقهم كالذبائح أرجلهم لأعلى ووجوههم لأسفل، ثم أضرموا النار في أجسامهم بعد أن ألقوا عليها المواد الحارقة، وما سمعناه وشاهدناه من الصور على شاشات الموبايلات في إحدى قرى محافظة كفر الشيخ والتابعة لمركز الحامول بذبح جزار لثلاثة شباب اتهمهم باختطاف ابنته وهتك عرضها وقطع لسانها وَسَمْلِ أعينها حتى تصبح عاجزة عن الكلام وعدم الإفصاح عنهم والاعتراف عليهم، أما فَقْأ أعينها، فكأنهم يظنون أنهم لا ينكشف سِرَّهُمْ ولا ينفضحُ أمرهُمْ، حتى إذا وُجِّهُوا بالمجنية عليها استحالة أن تفصح عنهم وتكشف سترهم لأنها أصبحت لا ترى، وعلم الأب أن ابنته ذهبت مع السائق الفلانيّ فقام باستدراجه حتى أخذه وأوقفه أمام بيته، ثم هدده حتى اعترف بجريمته هو وثلاثة شبان على طريقته وباتفاق مع والد الجانية قام باستدراج الثلاثة حتى جيء بهم إلى مكان مسرح الجريمة وهو أمام بيت والد المجنية عليها وعندما وصلوا الجناة قام الوالد الغاضب بتكتيفهم وربطهم بالحبال وذبحهم كالمواشي على أعين ومسمع الكثيرين من الناس.

إذن نقول في هذه الحالة: على المرء أن لاَ يَلُومَنَّ إلا نفسهُ، كما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي ذَرٍّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ» [1].

* * *

(١) مسلم: (٢٥٧٧).

الْمَدْخَلُ
(طَوْقُ النَّجَاةِ)

تذكر عبد الله أن طَوْقَ النجاةِ يُقْذَفُ لمن أشرف على الغرق أو الهلاك في بحرٍ متلاطم الأمواج ليُسْحَبَ إلى شاطئ النجاةِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا حتى يُصْبِحَ آمنًا بعد خوف، قال تعالى: {وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ} [قريش: ٤].

فالأمن نعمة من نعم الله لا يشعر بنعيمها إلا من بات ليلهُ ترتعد فرائصه، فقد أخرج البخاري في الأدب المفرد وغيره من حديث عبد الله بن محصن الخطمي ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي بَدَنِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا»[1].

* * *

طَوْقُ النَّجَاةِ

نِدَاءٌ:

يا أمة الإسلام إذا أردت السلامة والنجاة عليك أن تتبعي سبيل هدى محمد ﷺ.

يا مصر الحبيبة العزيزة، يا قرة العين، يا فلذة الأكباد، وحب الأجداد.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١١٢/١، ورقم ٣٠٠) والترمذي (٥٧٤/٤، ورقم ٢٣٤٦) وابن ماجة (١٣٨٧/٢، ورقم ٤١٤١)، وأخرجه القضاعي (٣٢٠/١، ورقم ٥٤٠) والبيهقي في شعب الإيمان (٢٩٤/٧، ورقم ١٠٣٦٢)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم: ٨٢٦.

يا حِبَّ القلوب وعشق كل مُحِبٍّ ومحبوب إذا أردت السلامة فاتبعي سبيل هدى محمد ﷺ الذي أعلمنا طريق السلامة والنجاة منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، فرسم لنا طريق النجاة وأوضح معالمه، فكشف لنا الداء ووصف لنا الدواء الذي فيه الشفاء، فدعا لعبد الله بن عباس فقال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ» فقد جاء في الحديث الصحيح من حديث ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» (١).

أي: من لم يتفقه في الدين ويتعلم أصول الفقه وما يتصل بها من فروعٍ حُرِمَ الخير كُلَّهُ، لأن ما نحن فيه الآن هو عدم تفقهنا في الدين، والمخرج من هذا المنزلق والْهُوَّةُ السَّاحِقَةُ المَاحِقَةُ هو الحفاظ على محارم الله وأن نبدأ بتعليم الشباب والفتية الصغار وتلقينهم من العلم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، كما جاء في الحديث الصحيح من حديث ابن عباسٍ ﷺ أنه قال: كنت خلف النبي ﷺ يومًا فقال: يا غلام: «إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» (٢).

فحفظ الله للعبد أن يُؤَمِّنَهُ من كل خوفٍ يُرهبه في الدنيا ولا يأمن جانبه، أما حفظ الله في الآخرة أن يؤمنه يوم الفزع الأكبر كما جاء

(١) متفق عليه في البخاري (٧١، ٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧).
(٢) صحيح رواه أحمد في الفتح الرباني (١/١٢٦/١٢) والترمذي (٤/٧٦/٢٦٣٥) والحاكم في المستدرك (٥٤١، ٣/٥٤١).

في سياقه تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾} [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣].

أي: إن الذين جُبِلُوا على الخصال الحسنة والصفات الحميدة وتطبيق شرع الله وحفظ محارمه هم في السعادة والتوفيق آمنون، لأن الله وقاهم عذاب السعير لأنهم لا يسمعون صوتها، ولا يسمعون صوت من يكتوي بلهيبها لأنهم بعيدون عنها وعَمَّا يُفزعهم منها، لأنهم أصبحوا في غرفات الجنان آمنون، فتستقبلهم الملائكة مطمئنين مهنئين في الدنيا مبشرين بحسن المثوبة والجزاء وعظيم الأجر في الآخرة، كما جاء في قوله تعالى: {مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ} [النمل: ٨٩].

أي: من عمل لما بعد الموت أو أكثر بالإحسان حسناته فجزاؤه من جنس عمله ليؤمنه الله من الفزع الهائل يوم القيامة ولا يعتريه أصوات الخائفين المفزعين في ذلك اليوم.

أما قوله ﷺ: «احفظ الله تجده أمامك».

أي: تَجِدْهُ معك أينما كنت يحفظك بمعيته، ويؤيدك بنصره، وَيُمَكِّنُ لَك في الأرض بأنه يسدد خطاك في كل عملٍ تَعْمَلُهُ، وفي كل قَوْلٍ تدعو إليه.

أما قوله ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله»، فالله يريد من العبد أن لا يسأل غيره، لذا وجب على المرء المسلم أن لا يمد يده بالسؤال إلا لله، لأنه هُوَ المعينُ وَهُوَ النَّصِيرُ، وهو القادر على دفع الأذى والضُّرِّ

عن ابن آدم، واستبدالهما بالخير الجزيل بإذنه تعالى، لذا وجب على ابن آدم أن لا يستنجد إلا به، ولا يسألنَّ إلاَّ هُو كما قال النبي ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبُ عَلَيْهِ» (١).

قال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾} [فاطر: ١٥].

فكيف تتركون من عنده كنوز السماوات والأرض وتلجأون إلى من لا يقدرُ على دَفْعِ الضُّرِّ عن نفسه.

لاَ تَسْأَلَنَّ بَنِي آدَمَ حَاجَةً ::: وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لا تُحْجَبُ
اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ::: وَبَنِي آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وقوله ﷺ: «وإذا استعنت فاستعن بالله».

فمن غيره يقدر على الاستعانة به إلا هو، فهو القادر على أن يلوذَ الْمَرْءُ به، وهو القادر على إعانة الضعيف واللجوء إليه، وهو القادر على دَفْع الضُّرِّ وقضاء الحاجات، فهل من المعقول أن أترك من لاَ تُرَدُّ عنده الحاجات وأسأل من يحتاج إلى نسمة هواء أو شربة ماء.

أما قوله ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

لذا وجب على ابن آدم أن يعلم علمًا يقينيًّا أنه لا نافع إلا الله، ولا ضَارَّ إلا الله، أي ما كُتِبَ في علم الله لا تبديل لكلماته ولكن أكثر

(١) حديث حسن: سنن الترمذي (٥/١٢٦/٣٤٣٣)، وسنن الترمذي (٥/٥٢/٣٢٩٩)، وسنن أبي داود (٤/٣٥٢/١٤٦٩).

الناس لا يفقهون، فليفعل المرءُ كُلَّ ما في وسعه من عملٍ صالحٍ لإرضاءِ ربِّهِ قَدْرَ ما يُسْتَطاعُ وليترك النتائج لِمُسَبِّبِ الأسباب لأنه هو وحدهُ القادرُ على جلب النفع، وهو وحده كاشفُ الضُّرِّ وٱلْبَلْوَى عن الْمَحْرُومين، فحفظ محارم الله هي السعادة الأبدية والنعيم السَّرْمَدِيِّ، أما التجرؤ على محارم الله فهو الضلال البَيِّنُ والْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، لذا وجب علينا أن نتقي محارم الله، ولا نفكر في يوم من الأيام أن ننظر باستهانةٍ إلى تلك المحارم لأن الله يُمْهِلُ وَلاَ يُهْمِلُ، فهذه خويلة بنت ثعلبة قد حدث بينها وبين زوجها وابن عمها مُشَادَّةً فحلف عليها وقال: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، أي: تُصْبِحِينَ في حُرْمَةَ الرُّكُوبِ، مِثْلَ أُمِّي، وعندما جاء من عمله ودخل البيت وأرادها فأبت وقالت والله لا تعلوني حتى يحكم رسول الله بيني وبينك.

فقد جاء في مسند الإمام أحمد عن يوسف بن عبد الله بن سلام عن خويلة بنت ثعلبة أنها قالت: فِيَّ والله! وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة قالت: كنت عنده، وكان شيخًا كبيرًا، قد ساءَ خلقهُ وضجر، فدخل عَلَيَّ يَوْمًا فراجعته بشيءٍ، فغضب فقال: أنت عليَّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ثم دخل عَلَيَّ، فإذا هو يريدني على نفسي. قالت: قلت: والذي نفسي خويلة بيده! لا تخلص إِلَيَّ وقد قلت ما قلت حتى ورسوله فينا بحكم، قالت: فواثبني، فامتنعت منه، فغلبته بما تغلب المرأة الشيخ الضعيف، فألقيتهُ عَنِّيِّ، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي، فاستعرتُ منها ثيابها، ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يَا خُوَيْلَةُ، ابْنُ عَمِّكِ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَاتَّقِي اللهَ فِيهِ»، قالت: فوالله ما

برحت حتى نزل فِيَّ القرآن، فَتَغَشَّى رسول الله ﷺ ما كان يَتَغَشَّاهُ، ثم سُرِّيَ عَنْهُ، فقال لي: «يَا خُوَيْلَةُ، قَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِيكِ وَفِي صَاحِبِكِ»، ثم قرأ عَلَيَّ: {قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤} [المجادلة: ١ - ٤].

قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «مُرِيه، فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً».

قالت: فقلت: يا رسول الله، ما عنده ما يعتق! قال: «فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ» قالت: قلت: والله إنه لشيخ كبير، ما به من صيام، قال: «فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ» قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فَإِنَّا سَنُعِينُهُ بِفَرْقٍ مِنْ تَمْرٍ»، قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعينه بفرق آخر. قال: «قَدْ أَصَبْتِ وَأَحْسَنْتِ، فَاذْهَبِي، فَتَصَدَّقِي عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكِ خَيْرًا» قالت: ففعلتُ [1].

وجاء في مسند الإمام أحمد، والترمذي، والبيهقي في شعب

(١) أخرجه أبو داود (٤١٢٢)، وأحمد (٢٦٧٧٤)، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) (٣٢٥٨)، وابن سعد في (الطبقات) (٥٤٧/٣)، وابن الجارود في (المنتقى) (٧٤٦)، وابن أبي حاتم في (العلل) (١٣٠٨)، والبزار (١٣٣٤ - موارد)، وابن جرير الطبري (٤/٢٨)، وابن حبان (٤٢٧٩)، والطبراني في (الكبير) (٦١٦) و (٦٣٣)، والبيهقي (١٥٦٥٣)
و(١٥٦٨٦)، والمزى في (تهذيب الكمال) (٣١٣/٢٨) من حديث خولة بنت ثعلبة.

الإيمان من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ» [1].

وَرُوِيَ عن قتادة أنه قال: خرج عمر من المسجد ومعه الجارود العبدي، فإذا بامرأة برزت على ظهر الطريق، فَسَلَّمَ عليها عمر، فردت عليه السلام، وقالت: هيهات يا عمر: عهدتك وأنت تسمى عُمَيْرًا في سوق عكاظ ترعى الضأن بعصاك، فلم تذهب الأيام حتى سُمِّيت عُمَرَ، ثم لم تذهب الأيام حتى سُمِّيتَ أمير المؤمنين، فاتق الله في الرَّعِيَّةِ، واعلم أنه مَنْ خاف الوعيد قَرُبَ عليه البعيد، وَمَنْ خاف الموت خَشِيَ عليه الْفَوْت، فقال الجارود: قد أكثرتِ أيها المرأةِ على أمير المؤمنين، فقال عُمَرُ: دَعْهَا، أَمَا تَعْرِفُهَا! فهذه خولة بنت حكيم امرأة عبادة بن الصامت التي سمع الله قولها من فوق سبع سماوات، فعمر والله أَحَقُّ أن يَسْمَعَ لَهَا [2] أ.هـ.

وهذا مما يجعلنا نقف وقفة تأمل وَرَوِيَّةٍ قبل الإقدام والتجرؤ على محارم الله تعالى، الاستحياء منه عند اللقاء، والنظرُ بإمعانٍ وسؤال النفس قبل القدوم على هذا الفعل كيف ألتقي به؟ وكيف أجيبه عند السؤال؟

وكيف ألقاه وأنا منغمس في تلك الذنوب؟

وكيف ألقاه وهو يباعد وجهه عني من أثر ما اقترفت من تصرفٍ بهيميٍّ؟ ألا حانت الفرصة أن نتساءل متى نستحيي من الله حق الحياء؟

---

(١) حديث حسن. السلسلة الصحيحة برقم: (٩٣٠) وصحيح الجامع برقم: (١٠٠).
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر برقم: (٣٣٤٤).

فقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن حديث ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ لأَصْحَابِهِ: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»، قَالُوا: إِنَّا نَسْتَحِيِي يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ الله حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَتَحْفَظَ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْيَذكرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ» (١).

معنى قوله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء».

أي: يستحي العبد من ربه عند الدخول في المعاصي ليقف عند حدود ربه فيتمسك بالحلال الطيب ويجتنب الباطل الخبيث، أما قوله ﷺ: «فليحفظ الرأس وما وعى»، فالرأس يوجد بها أربعة حواس وهما:

١- حَاسَّةُ الشَّمِّ.

٢- حَاسَّةُ السَّمْعِ.

٣- حَاسَّةُ الْبَصَرِ.

٤- حَاسَّةُ التَّذَوُّقِ.

* * *

(١) رواه الإمام أحمد (٣٨٧/١)، والترمذي رقم (٢٥٨٨)، والحاكم (٣٢٣/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في (صحيح الترمذي) (٢٩٩/٢).

حَاسَةُ الشَّمِّ

أوجدها الله في الأنف ليشم بها المسلم عبير الدنيا ورياحين الله الطيب من رائحة الزهور وعطرها الفواح، ويستنشق الهواء العليل ونسماته الرقيقة الرقراقة، وخاصة بعد صلاة الفجر، ومن اعتاد ذلك أَحَسَّ به، وأحسَّ باتساع صدره وراحة فؤاده فقد ذكر الأطباء أن طبقة الأوزون عند صلاة الفجر تكون نقية كالأرضِ البكرِ ليس فيها شوائب، فيتكون الهواء في تلك اللحظات من ذرتي أكسجين وذرة واحدة هيدروجين، ليس كبقية اليوم، فإن بقية اليوم يتكون الهواء من ذرتي هيدروجين، وذرة أكسجين، والمفاد من ذلك أن نطوع هذه الحاسة في طاعة الله وإرضاء مرضاته، لا في عصيانه والفضول في إطلاق العنان لهذه الحاسة في شم طيب النساء الذي يدل على أماكن وجودهن في العمل أو الشارع، أو أي مكان أينما ساروا، فعند شم الرجال لهذا الطيب تدور أعينه على مكان تلك الرائحة أينما سار، إلا ما رحم ربي، ثم يأتي أحد المتنطعين فيقول: (يا عم هو إحنا فايقين لمثل هذه الأقوال وهذه المهاطرات) فنقول: فَلِمَ حَرَّمَ ﷺ على النساء وضع الطيب عند النزول في الشوارع لقضاء حاجتهن، كما جاء في مسند الإمام أحمد، والنسائي، والحاكم في المستدرك من حديث أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعْطَرَتْ ثُمَّ خَرَجَتْ، فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحَهَا فَهِيَ زَانِيَةٌ، وَكُلُّ عَيْنٍ زَانِيَةٌ» [1].

وجاء في مسنده أيضًا، وصحيح مسلم، والسنن لأبي داود

(١) المشكاة برقم (١٠٦٥)، وإيمان أبي عبيد برقم (١١٠/٤٦)، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم: (٢٧٠١).

والنسائي من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَصَابَتْ بَخُورًا، فَلَا تَشْهَدْ مَعَنَا الْعِشَاءَ الآخِرَةَ»[1].

وجاء في سنن ابن ماجة من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « أَيُّمَا امْرَأَةٍ تَطَيَّبَتْ، ثُمَّ خَرَجَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ، لَمْ تُقْبَلْ لَهَا صَلَاةٌ حَتَّى تَغْتَسِلَ »[2].

أما أن تضع المرأة الطيب في بيت الزوجية، فأباح لها الإسلام ذلك وحرص عليه، وأباح لها أن تتزين لزوجها قدر المستطاع حتى تملأ عينه ولا ينظر لغيرها.

* * *

(١) المشكاة برقم (١٠٦١)، وصحيح الجامع برقم: (٢٧٠٢).
(٢) السلسلة الصحيحة برقم (١٢٨١)، وصحيح الجامع برقم: (٢٧٠٣).

حَاسَّةُ السَّمْعِ

فقد قيد الإسلام لهذه الحاسة أشياء، وأباح لها أشياء، أمَّا مَا قَيَّدَهُ الإسلام لها: فهو عدم إطلاق العنان لها حتى لا تحدث في المجتمع شروخ لا يسلم منها أبدًا كالذي يتنصت على غيره فيسمع الكلمة الواحدة فيكبرها لتصبح جملةً، ثم تكبر الجملة لتصبح قصة تجرُّ وراءها خراب البيوت عند الرجال والنساء، فألزم الإسلام الإنسان بالتعامل مع هذه الحاسة بأدب جَمٍّ رفيع، وَحَرَّمَ التَّغَوُّلَ فيها، لأن المجتمع الذي يتصف بهذه الصفات لا يسلم أبدًا ويصبح مصيره السقوط والهلاك بأسرع ما يمكن، قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾} [الإسراء: ٣٦].

وقد جاء في مسند الإمام أحمد وغيره من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ» (١).

فقد كان بعض الشباب في القرى في الستينات قبل وصول الكهرباء لريفنا المعاصر يَتَحَسَّسُونَ الْخُطَا في الظلام الدَّامِسِ الذي كان يُخَيِّمُ على تلك القرى بعد صلاة العشاء فيدورون في الشوارع يتنصتون على الشبابيك ليستمعوا بعض أصوات النساء مع أزواجهم أثناء الخلوة الجنسية، ثم يُصْبِحُوا ليشيعوا ذلك بين أقرانهم وذويهم، قال الحق - جلا وعل -: {مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾} [ق: ١٨].

---

(١) مختصر مسلم برقم: (١٨٥٠)، والسنة برقم: (١٩٣)، والمستدرك للحاكم برقم (٣)، وصحيح الجامع برقم: (٤٤٧٦).

قال عَلِيُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس ﷺ قال: يكتب كل ما تكلم به من خيرٍ، أو شرٍّ، حتى أنه ليكتب قوله أكلت شربت جئت رأيت، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، أقر منه ما كان من خير أو شرٍّ وألقى سائره.

احْفَظْ لِسَانَك أَنْ تَقُولَ فَتُبْتَلَى ::: إِنّ الْبَلاَءَ مُوَكّلٌ بِالْمَنْطِقِ أ. هـ [1]

وجاء في مسند الإمام أحمد والسنن من حديث معاوية بن حيدة أن رسول الله ﷺ قال: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ» [2].

لذا فنقول لمن يتصف بهذه الصفة الذميمة: إن الله قد حفظك بعدم كَشْفِ سِركَ أمام الناس، ولو أراد الله أن يكشف سرك لَسَلَّط الله عليك (الخفراء)، المسئولين عن القرية آنذاك وأصبحت فضيحتك يتكلم عنها القاصي والداني، وتصبح ممبوذًا بين الناس، ثم يقام عليك حَدَّ التجسُّسِ، أو التحسُّسِ بعد الذهاب لمركز الشرطة، ثم الذهاب للنيابة لانتظار الحكم في ذلك الشأن، وهناك من بعض الموظفين الذين يستخدمون هذه الحاسة لتسليطها على الزملاء لاستماع كل ما يقال وما يحاك عن مدير المؤسسة، أو مدير المدرسة، أو مدير مجمع من المجمعات، فيدور بين هؤلاء الموظفين حتى يسمع كل ما يحلو له، ثم يقوم بنقل كل ما سمع عن مديره المهزوز نفسيًا والذي هَيَّأَ له المناخ والظروف لتفشي هذه الظاهرة الخبيثة التي تنفخ سُمَّهَا في المجتمع، لتدور بين الناس دون أن يُحِسُّوا بها، أو يسمعوا لها صوتًا، وقد نهى الله عن التجسس فقال تعالى: {وَلَا تَجَسَّسُوا} [الحجرات: ١٢].

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: (٢٢٤/٤).
(٢) المشكاة برقم (٤٨٣٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٧١٣٦).

فقد جاء في محاسن التأويل للقاسميِّ أنه قال: ولما كان من ثمرات سوء الظن التجسس، فإن القلب لا يقنع بالظن، ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس، وذكر سبحانه النهي عنه إثر سوء الظن لذلك، قال تعالى: {وَلَا تَجَسَّسُوا} [الحجرات: ١٢].

قال ابن جرير: أي: لا يتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه [١].

قال الغزالي: ومعنى التجسس أن لا يترك عباد الله تحت ستر الله، فيتوصل إلى الاطلاع، وهتك الستر، حتى ينكشف له ما لو كان مستورًا عنه، كان أسلم لقلبه ودينه، ولما خطب رسول الله ﷺ رفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهن، فقال: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُخْلِصِ الإِيمَانَ إِلَى قَلْبِهِ " لا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَاتَ الْمُسْلِمِينَ تَتَّبَعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، حَتَّى يَفْضَحَهُ، وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ "**» [٢].

وجاء في الحديث المتفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَجَسَّسُوا، وَلا تَحَسَّسُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**» [٣].

وروى أبو داود أن ابن مسعود ﷺ أتى برجل، فقيل له: هذا

---

(١) جامع البيان: (١٣٥/٢٦).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في (جامع معمر) (٢٠٢٥١)، وابن عدي في (الكامل) (٥١/٦)، والطبراني في (الكبير) (١١٤٤٤)، وفي الأوسط (٣٧٧٨) من حديث ابن عباس بلفظه هنا، وأورده الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٢٤٦١٦)، وأورده أيضًا برقم (٩٤/٨)، وقال: رواه الطبراني ورجاله ثقات، وأخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) (١١١٩٦)، من حديث البراء بن عازب، وأخرجه الترمذي (٢٠٣٢)، من حديث ابن عمر.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧١٧)، (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٥٦٣)، ومالك (١٦١٦)، وأحمد (٧٨٤٥)، (٨٤٨٥)، والربيع في (مسنده) (٦٩٨)، والبيهقي في (الكبرى) (١١٢٣٩)، و(١٣٨١٣)، (١٧٤٠٠)، وفي (شعب الإيمان) (٦٧٠٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فلان، تقطر لحيته خَمْرًا! فقال: إنا نُهينَا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به [1].

وروى أبو داود عن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إِنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ» فقال أبو الدرداء ﷺ: كلمةٌ سمعها معاوية من رسول الله، نَفَعَهُ اللهُ بِهَا [2].

وروى الإمام أحمد عن دُجَيْنٍ، كاتب عقبة، قال: قلت لعقبة: إنا لنا جِيرَانًا يشربون الخمر، وأنا داع لهم الشُّرَطَ فيأخذونهم! قال: لا تفعل، ولكن عظهم وتهددهم! قال: ففعل فلم ينتهوا، وإني داع لهم الشُّرَط لتأخذهم! فقال له عقبة: ويحك! لا تفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَتَرَ عَوْرَةَ مُؤْمِنٍ، فَكَأَنَّمَا اسْتَحْيَا مَوْءُودَةً مِنْ قَبْرِهَا» [3].

وروى أبو داود عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْأَمِيرَ إِذَا ابْتَغَى الرِّيبَةَ فِي النَّاسِ أَفْسَدَهُمْ» [4].

قال الأوزاعي: ويدخل في التجسس استماع قوم وهم له

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٩٠)، والترمذي في (العلل) (٦٦٣)، وعبد الرزاق (٩٧٤١)، وابن أبي شيبة (٣٢٧/٥) وابن عبد البر في (التمهيد) (٢٢/١٨) من حديث ابن مسعود.

(٢) أخرجه أبو دواد (٤٨٨٨)، وابن حبان (١٤٩٥ - موارد)، والطبراني في (الكبير) (٨٩٠)، وفي مسند الشاميين، (٤٧٣)، والبيهقي في (الكبرى) (١٧٤٠١)، وفي شعب الإيمان (٩٦٥٩) من حديث معاوية.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٤٣٣)، والقضاعي في (مسند الشهاب) (٧٤٩٠)، وابن حبان (٥١٧)، و(١٤٩٣ - موارد)، والبيهقي في (الكبرى) (١٧٣٨٧)، وفي شعب الإيمان) (٩٦٥١)
و(٩٦٥٣) من حديث عقبة بن عامر.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٨٩)، وأحمد (٢٣٨٦٦)، وابن أبي عاصم في (السنة) (١٠٧٢)، وفي (الآحاد والمثاني) (٢٨٣٢) و(٢٨٣٤) والطبراني في (الكبير) (٣٠٢) و(٦٥١) و(٧٥١٥)، والحاكم (٨١٣٧)، والبيهقي (١٧٤٠٢)، من حديث أبي أمامة الباهلي.

كارهون [1] أ.هـ.

أما الاستماع الطيب والمباح، أي: الذي أباحه الإسلام وحرص على اتباعه هو الاستماع لكتاب الله تعالى، والاستماع في ذلك الشأن قد يأخذ أجر من قرأ إذا دخل في معية الله وَأُحِسَّ بما يسمع، فله أجر ما سمع كأجر من قرأ، فقد جاء في التاريخ للبخاري وسنن الترمذي، والحاكم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ (آلم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ» [2].

والاستماع المباح أيضًا هو الاستماع لمجالس العلم والجلوس تحت أقدامهم والاستفادة بعلمهم، فمن فعل ذلك أخذ أجر مجالس الذكر، فقد جاء في سنن الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» [3].

* * *

(١) محاسن التأويل للقاسمي: (٨/٤٣٧ - ٤٣٩).
(٢) شرح الطحاوية برقم: (١٥٨)، والمشكاة برقم: (٢١٣٧)، وصحيح الجامع برقم: (٦٤٦٩ - ٢٢٠٢).
(٣) صحيح الجامع برقم: (٦٢٩٨).

حَاسَّةُ الْبَصَرِ

وهي المسئولة عن النظر في الكون والتأمل في عجائبه والإمعان في قدرة القادر ونظامه البديع الذي يخلع القلوب من مكانها ويملأها خشية وإجلالاً وكلما أمعنت النظر وازددت بحثًا في الإعجاز العلمي عن ذلك، فالنظر نعمة من الله إذا استخدمه المرء في طاعة الله، ويُصبح نقمةً إذا اسْتُخدم في معصية الله.

ولذا حذر الله سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات من فضول النظر، وأمر بغض البصر، وَحَذَّرَ مَغَبَّةَ الوقوع فيه كما جاء في قوله تعالى: {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾} [النور: ٣٠].

أي: مقتضى إيمانكم الغض عما حرم الله تعالى النظر إليه، والغض والحفظ أطهر للنفس وأتقى للدين، لأن الله عليم بأفعالهم وأحوالهم، وكيف يجيلون أبصارهم، وكيف يصنعون بسائر حواسهم وجوارحهم، فعليهم إذا عرفوا ذلك أن يكونوا منه على تقوى وحذر في كل حركة وسكون، وسر تقديم غض الأبصار على حفظ الفروج، هو أن النظر بريد الزنا ورائدا الفجور.

وَكُنْتُ إِذَا أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ::: لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتْعَبَتْكَ الْمَنَاظِرُ

ولأن البلوى فيه أشد وأكثر، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه، فبودر إلى منعه، ولأنه يتقدم الفجور في الواقع، فجعل النظم على وفقه [1] أ.هـ.

ولأن النظر سهم مسموم من سهام إبليس، فمن داوم النظر وأمعن

(١) محاسن التأويل للقاسمي: (٣٨٦/٧ - ٣٨٧).

فيه، واستمتع بلحظاته، دامت حسراته.

كُلّ الْحَوَادِثِ مُبْدَاهَا مِـنَ النَّظَـرِ ::: وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّـرَرِ

ثم أمر الله تعالى النساء بما أمر به الرجال فقال: {وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ} [النور: ٣١].

فالنساء مأمورات أيضًا بغض الأبصار، ولا يحل للمرأة أن تنظر من الأجنبي إلى ما تحت سرته إلى ركبته، وإن اشتهت غضت بصرها رأسًا، ولا تنظر من المرأة إلا مثل ذلك، وغض بصرها من الأجانب أصلاً أولى بها وأحسن.

ومنه حديث ابن أم مكتوم عن أم سلمة ﵂ قال: كنت عند النبي ﷺ وعنده ميمونة، فأقبل ابن أم مكتومٍ، وذلك بعد أن أُمِرْنَا بالحجابِ فدخل علينا، فقال: «احْتَجِبَا»، فقلنا يا رسول الله! أليس أعمى لا يُبْصِرُنَا! قال: «أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُمَا أَلَسْتُمَا تُبْصِرَانِهِ» [(١)] أ.هـ.

ومن موجبات الجنة غض البصر وحفظ الفرج، فقد جاء في مسند الإمام أحمد، وصحيح ابن حبان من حديث عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ ﵁ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ» [(٢)].

---

(١) المصدر السابق: (٣٩٠/٧)، والحديث أخرجه أبو داود (٤١١٢)، والترمذي (٢٧٧٨)، والنسائي في (الكبرى) (٩٢٤١)، وأحمد (٢٥٩٩٧)، وأبو يعلى (٥٩٢٢)، وابن حبان (٥٥٧٥)، والبيهقي (١٣٨١٢) من حديث أم سلمة، وقال الترمذي حديث حسن صحيح.

(٢) صحيح ابن حبان برقم: (١٩/١٩٧/٨٢)، والحاكم في المستدرك برقم: (٤/٣٥٩)، ومسند الإمام أحمد برقم: (١٩/١٩٧/٨٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم: (١٠١٨).

ولذلك فقد جعل الله سبحانه وتعالى حفظ الفرج سببًا من أسباب الفلاح والنجاح والنجاة في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: {وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ} [المؤمنون: ٥ - ١١].

* * *

حَاسَّةُ التَّذَوُّقِ فَتَتَمَثَّلُ فِي اللِّسَانِ

واللسان هو أصغر عضوٍ في جسد الإنسان، وبالرغم من صغر حجمه، فإن جُرْمَهُ كبير وخطره عظيم، إذا لم يحسن صاحبه التعامل معه وإلزامه بالصمت عند الحاجة إلى ذلك، لأن في الصمت النجاة، كما جاء في سياق حديث رسول الله ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ صَمَتَ نَجَا» (١).

لأن في الصمت البلاغة، والناظر إلى عمل ابن آدم وما أورده المهالك في الدنيا وكثرة كُرْهِ الناس له في التَّقَوُّلِ عليهم بِغَيْر حَقٍّ، كالكذب والغيبة والنميمة، والتطاول عليهم بألفاظ بذيئةٍ تجرح المشاعر، فتؤذي الأعراض وتصيب الشرف في مقتل، لذا تجد غالبية الناس تخاف بطش لسانه، ولذلك حَذَّرَ رسول الله ﷺ من بطش الله لهم يوم القيامة وأن الله آخذ بهم لأنهم أشر الناس منزلة عند الله يوم القيامة، فقد جاء في الحديث المتفق عليه من حديث عروة بن الزبير عن عائشة أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ، أَوْ وَدَعَهُ النَّاسَ، اتِّقَاءَ فُحْشِهِ» (٢).

---

(١) رواه الدارمي في كتاب الرقاق، في باب الصمت (٢٩٩/٢) عن عبد الله بن عمرو ابن العاص ﷺ، ورواه الترمذي في (٣٨) كتاب صفة القيامة (٥٠) باب (الحديث ٢٥٠١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٥/٤ - ١٢٦، ١٤٢)، ومسلم (٢١/٨)، وأبو داود (٤٧٩١)، والترمذي (٣٦٠/١)، وأحمد (٣٨١٦)، وأخرجه ابن وهب في (الجامع) (٦٩ - ٧٠)، وأحمد (١٥٨١٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٣٨)، وسنده على شرط مسلم، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: (١٠٤٩)، وسياق الحديث قالت عائشة: استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده، فقال: بئس ابن العشيرة، أو أخو العشيرة، ثم أذن له، فألان له القول، فلما خرج، قلت يا رسول الله له ما قلت، ثم ألنت له؟ فقال: فذكر الحديث.

ثم الأدهى والأمر من ذلك تجرؤ هؤلاء على قول الزور الذي يبعد الحق عن صاحبه ليبيت ليله مكلومًا محزونًا تائه شريد يتخبط في درجات الحزن العميق، بلا مستنجد أو مغيثٍ، أو معينٍ ولا حول ولا قوة إلا بالله، فما أكثر النفوس التي ذهبت أرواحها هباءً من جَرَّاءِ ذلك، لأن ذلك من الظلم ألبَيِّنِ الذي حَرَّمَهُ اللهُ على نفسه قبل تحريمه على البشر، فقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم من حديث أبي ذرٍّ ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ :«إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا» [1].

لاَ تَظْلِمَنَّ إِذَا مَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا ::: فَإِنَّ الظُّلْمَ عُقْبَاهُ إِلَى النَّدِمِ
تَنَامُ عَيْنُكَ وَالْمَظْلُومُ مُنْتَبِهٌ ::: يَدْعُو عَلَيْكَ وَعَيْنُ اللهِ لَمْ تَنَمِ

ومما يجعل اللسان يظلم صاحبه شهادة الزور والذي يعلم ناطقها أنه كاذبٌ مائةً في المائةِ ولذلك جعله رسول الله ﷺ من أكبر الكبائر لأنه يغير وجه الحقيقة، فيرفع الباطل ويخفق الحق، أي: يزيله، فقد جاء في الحديث المتفق عليه من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ ثَلَاثًا؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا، فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ " ، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ» [2].

فقول الزور، أو شهادة الزور تعدل الشرك بالله، فعن خُرَيْم بن فاتك الأسَدِيِّ أن رسول الله ﷺ صَلَّى صلاة الصبح، فلما انصرف قام

(١) مسلم (٢٥٧٧).
(٢) البخاري (٢٥١١)، ومسلم (١٤٣ - ٨٧).

قائمًا، فقال: «عُدِلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ بِالشِّرْكِ بِاللهِ» [1]. قالها ثلاث مرات، ثم تلا قوله تعالى: {وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ} [الحج: ٣٠].

لذا وجب علينا الامتناع عن قول الزور، لأنه يمحو البركة ليس في النفس فقط، ولكن محوها في العقب أي: في الأولاد وما يعقبهم من قلة البركة، وعدم طاعتهم لآبائهم، بل وعقوقهم، والأخطر من ذلك أن هذا اليمين يغمس صاحبه في نار جهنم، لا يخرج منها إلا إذا وَفَّى صاحب الحق حقه، فمن أين له أن يوفي حق المظلوم في يومٍ أصبح الحساب فيه بلا عمل، قال رسول الله ﷺ: «الْيَمِينُ الْغَمُوسُ تَفَرُ الدِّيَارَ بَلاَ قِعَ». وفي رواية أخرى: «الْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ تَدَعُ الدِّيَارَ بَلاَ قِعَ» [2].

ومعنى: تَفَرُ الديار بلا قع، أو تدعُ الديار بلا قع، أي: تركوا البيوت، أو الديار دمارًا خرابًا صَفْصَفًا، لا ترى فيها عِوَجًا ولا أمتى، يصاب صاحبها بأسقامٍ وأمراضٍ في بدنه يصعب علاجها كأورام سرطانية في الكبد، أو الطحال، أو الرئة، أو إحراق في بيته، أو فقد أحد أولاده وفلذة كبده، ليجعله يتجرع العلقم من فَرْطِ الندم، وفي تلك اللحظة فلا مُجِيرَ وَلاَ مُسْتَجِيَر إلا علاَّمَ الغيوب الذي عنده كل الحلول لكل صعب عسير، فَٱلْمَرْءُ عَلى ما ينطق به لسانه، ويصدق به كيانه، لأن شاهد الزور تعرفه الناس من سواد وجهه وانكساره وذلة نفسه في حياته الدنيا، أما عند احتضاره فيعرفهُ الْمُغَسِّلُ من سُوءِ مُنْقَلَبِهْ.

لذا وجب على المرء المسلم أن يملك لسانه حتى يجنبه شَرَّ نفسه،

(١) سنن ابن ماجة حديث رقم: (٢٣٧٢/٢)، تعليق الشيخ: محمد فؤاد عبد الباقي.
(٢) رواه البيهقي برقم (٣٥٠/١٠)، وصححه الألباني، وأخرجاه الترمذي، والحاكم من طريق يحي بن أيوب القافقي في (تخريج الفضائل) برقم: (٧٨٣).

فلا يتكلم إلا بما هو صالح لنفسه ولمجتمعه، ولا يترك للسانه العنان أن يخوض في الباطل فيقذف المحصنات الغافلات فيتعرض لهتك عرضهن، لأن من يدخل في ذلك الباب، فكأنما دخل في هُوَّةٍ خطيرةٍ تحرق أبدانه ليصبح أثرًا بعد عين، أي: لا يصبح لوجوده أثرًا حتى في حياته من سواد وجهه ورائحة نتن لسانه، لأن ذلك من الموبقات والكبائر، لذا أعدَّ الله مرتكبي ذلك من الفاسقين، كما جاء في قول تعالى: {وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾} [النور: ٤].

ولقد أنكر الله تعالى على الذين يتلقون الشائعات بأفواههم ويرددونها دون وَعْيٍ ولا تفكيرٍ، فقال تعالى: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ} [النور: ١٥]، أي: حديث الإفك {إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾} [النور: ١٥].

ثم أرشد الله المسلمين إلى ما يجب عليهم إذا سمعوا مثل هذا الكذب، فقال: {لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾} [النور: ١٢].

وقال سبحانه: {وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾} [النور: ١٦].

فعَلَّمَ الله المؤمنين إذا سمعوا أحدًا يخوض في عِرْضِ مؤمنٍ أو مؤمنةٍ أن يردُّوا عليه كلامه، وألا يخوضوا معه فيه، وإلا كانوا معه في الإثم سواء.

إن الإسلام يجب أن يقيم للمسلمين مجتمعًا شريفًا عفيفًا، طاهرًا نقيًا، تختفي منه الرذيلة، وتنتشر فيه الفضيلة، ولن يتم ذلك إلا

بصيانة الأعراض عن الألسنة التي تطاول عليها، بزجر أهلها عن هذا التطاول بإقامة الحد عليهم ورد شهادتهم، وحين يتعلم المسلمون الستر على من ابتلى بسوء، وإمساك ألسنتهم عن ذكر عورات الناس، يُحجم أهل السوء عَمَّا أرادوا، إذ يغلب على ظنهم أنه ليس في المجتمع من يجيبهم إلى طلبهم، وأما حين تنطلق الألسنة في انتهاك أعراض المسلمين، والخوص في زلاَّتهم، فإن ذلك يُشجع أهل الرَّيب على ما يريدون، حيث يُقَوِّي هذا الخوض في نفوسهم ظنَّ القدرة على الوصول إلى ما يريدون فـ«يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ ، تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ» [1].

فيا معشر المسلمين لا تصدقوا كل ما تسمعون، بل لا تسمعوا كل ناعقٍ وفاسقٍ، وادفعوا عن عورات المسلمين، واحموا أعراضهم، فـ«مَنْ حَمَى مُؤْمِنًا مِنْ مُنَافِقٍ ، بَعَثَ اللهُ مَلَكًا يَحْمِي لَحْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، وَمَنْ رَمَى مُسْلِمًا بِشَيْءٍ يُرِيدُ شَيْنَهُ حَبَسَهُ اللهُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ» [2] أ.هـ.

فمن المهانة للمرء المسلم أن لا يملك زمام لسانه حتى دفعه الفضول وَجَرَّهُ الخوض في الباطل أن يكشف عِرْضَ نفسه على كل من هَبَّ وَدَبَّ ولا يستر عورة نفسه، وعورة بيته، فيخوض فيما ليس له الحق في الخوض فيه.

---

(١) حديث صحيح: رواه الإمام أحمد في مسنده، وأبي داود في سننه عن أبي برزة الأسلمي، وجاء في المشكاة برقم: (٥٠٤٤)، وصحيح الجامع برقم: (٧٩٨٤ - ٣٠٧٨).

(٢) الوصايا المنبرية للشيخ/ عبد العظيم بدوي، ص: ٧٢-٧٣، والحديث جاء في صحيح سنن أبي داود برقم: (٤٠٨٣)، وسنن أبي داود (عون المعبود) برقم: (١٣/٢٢٤/٤٨٥٩).

فقد روى مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ» [1].

وروى أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَمَانَةِ، عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا» [2].

فلحظات النجوى بين الرجل وزوجته أي: الدخول إلى الخلوة والانبساط في الكلام بأجمل العبارات وألطفها، لها حرمة الأمانة، والعلاقات الزوجية لها قداستها، وهي سِرٌّ بين الزوجين يجب أن يُصَان عن القريب والبعيد، ويجب أن يُوضع له خَطٌّ أَحْمَرٌ لا تتعدَّاه الأسرارُ، ولا يخرج من حجرة الزوجية، فإن من المجانة أن يحدث الرجل أو تثرثر المرأة بما يدور بينها وبين زوجها، فتلك وقاحة يبرأ منها أدب الإسلام وتنفر منها آذان أصحاب العقول السَّوِيَّةِ السلمية، فعن أسماء بنت يزيد ﷺ أنها كانت عند رسول الله ﷺ والرجال قعود عنده فقال: «لَعَلَّ رَجُلًا يَقُولُ مَا يَفْعَلُ بِأَهْلِهِ، وَلَعَلَّ امْرَأَةً تُخْبِرُ بِمَا فَعَلَتْ مَعَ زَوْجِهَا، فَأَرَمَّ الْقَوْمُ، فَقُلْتُ: إِي وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُنَّ لَيَقُلْنَ، وَإِنَّهُمْ لَيَفْعَلُونَ، قَالَ: فَلَا تَفْعَلُوا، فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ، لَقِيَ شَيْطَانَةً فِي طَرِيقٍ، فَغَشِيَهَا وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ» [3].

---

(١) رواه مسلم في المقدمة (٣) باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (الحديث ٥/٥) من طريق خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة ﷺ ومن طرق أخرى عدة.

(٢) رواه مسلم (١٤٣٧)، وأبو داود (٤٨٧٠)، وأحمد (١١٢٥٢٨) وكلهم عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٣) حسن لغيره: رواه أحمد وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٢٠٢٢) لكن ذُكِرَ في آداب الزفاف (٧١) وأن له شواهد من حديث أبي هريرة عن أبي شيبة، وأبي داود والبيهقي، وابن السني، وشواهد أخرى، لذا قال: (فالحديث بهذه

ومعنى أرم القوم: أي أمسكوا عن الكلام في خجل وحياء، فلا يجوز للزوج أو الزوجة التحدث بأسرار الجماع، وَلاَ أَىَّ سِرٍّ يُخْدِشُ جِدَارَ الزوجية، لأن هذا يدل على سقوط المروءة وعدم الحياء، فقد روى مسلم من حديث أبا سعيد الخدري أنه قال: قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ، عَنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا» [1].

يوضح هذا الحديث تحريم إفشاء الرجل ما يجري بينه وبين امرأته من أمور الاستمتاع، ووصف تفاصيل الجماع، فإن لم تكن فيه فائدة ولا إليه حاجة فمكروه لأنه خلاف المروءة، وقد قال رسول الله ﷺ : «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ».

وإن كان إليه حاجة أو ترتب عليه فائدة بأن ينكر عليه إعراضه عنها أو تَدَّعِي عليه العجز عن الجماع، أو نحو ذلك، فلا كراهة في ذكره كما قال ﷺ : «إني لأفعله أنا وهذه»، وقال لأبي طلحة: «أَعْرَّسْتُمُ اللَّيْلَةَ ؟» وقال لجابر: «الْكَيْسَ الْكَيْسَ» [2] أهـ.

قال الشيخ محمد حسان: أن من أجمل ما قرأت في هذا الباب؟ أَنَّ رَجُلاً من العقلاء الصالحين الأمناء أراد أن يُطَلِّقَ امرأته لخلافٍ حدث بينهما؛ فذهب إليه بعض الناس، وقالوا: لماذا تريد أن تطلقها؟ ما الذي يريبك منها؟ فَرَدَّ هذا الرجل الأمين، وقال: العاقل لا يهتك سِتْرَ امرأته! وَقَدَّرَ اللهُ - جل وعلا - فطلقها، فذهبوا إليه - بعدما طلقها - وقالوا: لقد طلقتها فلماذا طلقتها؟ قال: ما لي ولامرأة غيري!

الشواهد صحيح أو حسن على الأقل).

(١) مسلم: (١٢٣-١٤٣٧).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: (٥/٢٣٤).

أيُّ أمانةٍ هذه؟! هؤلاء هم الأمناءُ حَقًّا [1] أهـ.

لذا وجب على المرء أن يملك لسانه ويلجمه بلجامٍ من التقوى، ولا ينسى في أي وقت من الأوقات أَنْ يُوقِعَهُ هذا اللسان في الحرج والاعتذار كما تقول الحكمة: (إِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ) كما جاء في مسند الإمام أحمد، وسنن ابن ماجة عن أبي أيوب ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ، فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ، وَلَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ، وَأَجْمِعِ الْإِيَاسَ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ» [2].

فاحرص عبد الله أن تكون مالكًا للسانك، لأنك لو ملكته فأنت سالمٌ غانمٌ، وإذا تركته فأنت هالِكٌ خاسِرٌ، لأنه هو العضو الوحيدُ الذي يُبْدِي عيوب صاحبه.

وَزِنِ الكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا ::: يُبْدِي عُيُوبَ ذَوِي الْعُقُولِ الْمَنطِقُ

وأحسن ما قيل أيضًا في ذلك الشأن:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَلِيمًا مِنَ الْأَذَى ::: وَحَظُّكَ مَوْفُورٌ وَعِرْضُكَ صَيِّنُ
لِسَانَكَ لَا تَذْكُرْ بِهِ عَوْرَةَ امْرِيءٍ ::: فَكُلُّكَ عَوْرَاتٌ وَلِلنَّاسِ أَلْسُنُ

فالعاقل حَقًّا هو الذي يزن كلامه بميزانٍ من ذهب، لأنه يُعَبِّرُ عن ميزان المرء الحقيقيُّ عند الناس، فإذا صادفك رجلٌ قد ظهر عليه الوقارُ، أي: وقار الملبس والمنظر، وترك ذلك أثرًا في داخلك بإحساس المصادقة، أو المصاهرة، والتمسك به على أنه: (هَامَهُ وَقَامَهُ)، ثم يسقط من نظرك فجأةً عند أول حركة من حركات لسانه عندما تكلم بكلام صغيرٍ لم يَرْقَ إلى هذه القامةُ وهذه الهامةُ، فأصبح كالطفل الصغير الذي يعبث بلسانه فيطلق الصَّفِيرَ، أو الغناءَ في

(١) أحداث النهاية - الشيخ/ محمد حسان، ص١٨٥.
(٢) السلسلة الصحيحة برقم (٤٠١)، وصحيح الجامع برقم: (٧٤٢).

جِلْسَةٍ تَتَّسِمُ بِالْوَقَارِ، فتقول في نفسك كما تقول الْعَامَّةُ: (والله إنك لرجل هايف) لذا وجب على كل عاقلٍ لبيب رشيدٍ أن يَزِنَ ألفاظهُ، ويضبطَ كلماتهُ قبل أن ينطق بها، لأن الكلمة الواحدة ترفع شأن بلاد، والكلمة الواحدة تدمر شأن بلاد، والكلمة الواحدة ترفع رجالاً، فتجعلهم هَامَاتٌ وَقَامَاتٌ، والكلمة الواحدةُ تَذِلُّ رجالاً وتجعلهم في صفوف السجناء ومحل شَكٍّ واتهاماتٍ، فقد روى أن أبا حنيفة رحمه الله كان يلقي على تلامذته درس فقه، وكان مَادًّا رِجْلَيْهِ، فدخل المسجد رجل حسن الهيئة فارع الطول، وأتى حلقة أبي حنيفة ليستمع، فضم أبو حنيفة رجليه احترامًا للقادم، أي: احترامًا لهذا الرجل، وظل يلقي درسه، حتى وصل إلى قوله: وقت المغرب يبدأ من غروب الشمس إلى غياب الشفق الأحمر من السماء، فقال هذا الرجل: يا شيخ! أرأيت إن لم تغرب الشمس؟! فقال أبو حنيفة: الآن آن لأبي حنيفة أن يَمُدَّ رجليه، فلو ظل ساكتًا، أو صامتًا، لظل أبو حنيفة على احترامه وتقديره لهذا الرجل، لكنه عندما تكلم وقال ما قال علم قدره، فعند ذلك قال مقولته وأعطاه من التوقير على قدر ما خرج من لسانه لا على قدر هيبته وحسن هيئته، لذا أصبحت الحكمة بليغة في ذلك الشأن حيث قالت: (إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب) لأن سبيل نجاة المرء امتلاك لسانه، كما جاء في الحديث الصحيح من حديث عقبة بن عامر ﷺ أنه قال: لقيت رسول الله ﷺ فَابْتَدَأْتُهُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا نَجَاةُ الْمُسْلِمِ؟ قَالَ: «يَا عُقْبَةُ أَمْلِكَ عَلَيْكَ لِسَانَكَ» [1].

قال محمد بن المنكدر: (إِذَا وَجَدَ الرَّجُلِ وَهَنًا فِي بَدَنِهِ، وَقَسْوَةً فِي

(١) السلسلة الصحيحة برقم: (٨٩٠، ٨٩١)، وأحمد (الفتح الرباني) برقم: (١٩/١٨٤/٣٥).

قَلْبِهِ، وَ إِدْبَارًا فِي رِزْقِهِ، فَلْيَعْلَمَ عِلْمَ الْيَقِينِ أَنَّهُ قَدْ خَاضَ فِي عِرْضِ أَخِيهِ)، ولذلك عندما ذهب رسول الله ﷺ ليعود طفلاً مريضًا قد أشرف على الموت فقالت أمه: أَنَّ لَهُ الجنَّةَ فقال رسول الله ﷺ :«وَمَا أَدْرَاكِ أَنَّهُ قَدْ خَاضَ فِي عِرْضِ أَخِيهِ».

* * *

التَّخْوِيفُ مِنَ الْغَيْبَةِ

من عكف على الغيبة واستحلها لنفسه واستلذ بما يطلقه لسانه ليجرح الصالح والطالح ويتفوَّهَ بما ليس له من علم، وبما له به عِلْمِ مَنْ أَمْرِ مَنْ يغتابه ويتناول عِرْضَهُ فَيُمَزِّقُهُ تَمْزِيقًا، وجب عليه أن يُقلعَ عن ذلك الأمر على الفور وليعلم أن كل ما يُخرجه من فاهه في ذلك الشأن هو من الكبائر، لما رواه أبو داود من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَمِنَ الْكَبَائِرِ السَّبَّتَانِ بِالسَّبَّةِ» (١).

فالدخول في عِرْضِ المسلم أعظم على المرء وأخطر من أكل الربا، فقد روى الطبراني في (الأوسط) عن البراء بن عازب - ﷺ - أن رسول الله ﷺ قال: «الرِّبَا اثْنَانِ وَسَبْعُونَ بَابًا، أَدْنَاهَا مِثْلُ إِتْيَانِ الرَّجُلِ أُمَّهُ، وَأَرْبَى الرِّبَا اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ» (٢).

وروى البزار من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ أَرْبَى الرِّبَا اسْتِطَالَةُ الْمُرْءِ فِي عِرْضِ أَخِيهِ» (٣).

ثم نَفَّرَ اللهُ مِنْ أَمْرِ الغيبة، وَصَوَّرَ من يغتاب أخيه في أبشع صُورَةٍ، كالكلب الذي يأكل لحم أخيه مَيْتًا حيث جاء في قوله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾} [الحجرات: ١٢].

---

(١) صحيح لغيره: رواه أبو داود وصححه الألباني في (صحيح الترغيب) برقم: (٢٨٣٢).
(٢) صحيح: رواه الطبراني في (الأوسط) وقال الألباني في (صحيح الترغيب) صحيح لغيره برقم: (٢٨٣٠).
(٣) صحيح لغيره: رواه البزار، وصححه الألباني في صحيح الترغيب،، برقم: (٢٨٣٢).

فعن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ مَرَّ عَلَى بَغْلٍ مَيِّتٍ فَقَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِه: «لأَنْ يَأْكُلَ الرَّجُلُ مِنْ هَذَا حَتَّى يَمْلأَ بَطْنَهُ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ» (١).

وروى أبي بكر بن أبي شيبة والطبراني من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: كُنَّا عِنْدَ النَّبِي ﷺ فَقَامَ رَجُلٌ، فَوَقَعَ فِيهِ رَجُلٌ مِنْ بَعْدِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَخَلَّلْ»، فَقَالَ: وَمَا أَتَخَلَّلُ؟ مَا أَكَلْتَ لَحْمًا! قَالَ: «إِنَّكَ أَكَلْتَ لَحْمَ أَخِيكَ» (٢).

وبالرغم من التحذير من هذا الفعل الشنيع إلا أن ابن آدم يحلوا له الخوض في ذلك المقام، لأن شيطان الإنس يَجُرُّ صاحبه إلى التَّحَلُّقِ في حلقات الغيبة والنميمة، ليدخل في عرض أخيه، فيخوض في الباطل بلا حياءٍ، أو خجل مِمَّا لا تخفي عليه خَافِيَةٌ في الأرض ولا في السماء، وبدلاً من أين يتحلقون في حِلقِ مجالسِ العلِم والذكِر تَحَلَّقُوا في مجالس اللهو والعبث وقذف المحصنات، ولا تسلم المجالس من ذلك حتى مجالس الرؤساء والوزراء والتربية والتعليم والمحاكم ومجالس المدينة وغيرها من الوظائف حتى النوادي والمقاهي يجعلون هذا الأمر فاكهة المجالس والمنتديات وسبب ذلك كله شيطان الإنس الذي جَنَّدَهُ شيطان الجن، كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ

(١) رواه أبو الشيخ ابن حبان وغيره موقوفًا، وصححه الألباني برقم: (٢٨٣٨).
(٢) صحيح لغيره: حديث غريب، رواه أبي بكر بن أبي شيبة والطبراني، واللفظ له، ورواته رواه الصحيح، وصححه الألباني في (صحيح الترغيب) برقم: (٢٨٣٧).

يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾} [المطففين: ٢٩ - ٣٦].

فهذا نذير من الله، فمن أقلع عن ذلك فقد فاز ونجا، ومن ظَلَّ على حاله، فقد أَغْوَتْهُ شياطين الإنس والجن، وأمهله الله إلى يوم الْحَسْرَةِ حتى ينفذ فيه أمرهُ كما جاء في قوله تعالى: {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ} [مريم: ٣٩]، {وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾} [غافر: ١٨].

قال مالك ابن دينار: (إِنَّ شَيْطَانَ الإِنْسِ أَشَدُّ عَلَيَّ مِنْ شَيْطَانِ الجِنِّ، لأَنَّ شَيْطَانَ الجِنِّ إِذَا ذَكَرْتُ اللهَ ذَهَبَ عَنِّي، أَمَّا شَيْطَانُ الإِنْسِ فَيَجِيؤُنِي لِيَجُرُّونِي إِلَى الْمَعَاصِي عَيَانًا)، وما السبيل إلى ذلك؟ والمخرج من هذا المنزلق الخطير؟

* * *

وَكَيْفَ يَتَخَلَّصُ الْمَرْءُ مِنَ الْغِيْبَةِ؟

بِخَمْسَةِ أُمُورٍ:

١- **أن تعلم**: أن الغيبة من الأمور التي تعرضك لسخط الله وغضبه، وأن تستحضر ما ذكر من الأخبار في ذَمِّ الغيبة.

٢- **أن تعلم**: أنك بذلك تنتقل حسناتك إلى من اغتبته حتى تصل إلى درجة الإفلاس، وذلك في يوم تكون أحوج إلى الحسنة الواحدة التي تنجو بها من النار، وتدخل بها الجنة.

٣- **هل تُحِبُّ أن يغتابك أحد، ويستهزئ بك في المجالس؟** بالطبع: لا، فعامل الناس بما تُحب أن يعاملوك به.

٤- **أن تُطهر قلبك من الأسباب الباعثة على الغيبة كالحقد**، والحسد، وحب المدح، وغير ذلك من أمراض القلوب.

٥- **إذا حَدَّثَتْكَ نفسك بذكر عَيْبٍ في مسلم، فَفَتِّشْ في نفسك**، فإنك وَاجِدٌ ذلك أو أشد، فإن لم تجد، فإن الانشغال بعيوب الناس من أعظم العيوب.

قال الحسن البصري - رحمه الله -: يا ابن آدم، إنك لن تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بإصلاح ذلك العيب من نفسك، فإذا فعلت ذلك، كان شغلك في خاصَّةِ نفسك، وأحب العباد إلى الله من كان هكذا [١] أهـ.

إذن وجب على ابن آدم إذا جلس مجلس الغيبة أن يَذُبَّ عن عرض أخيه، وَإلاَّ أصبح مُشَارِكًا في الغيبة، وليعلم أَنَّ مَنْ رَدَّ عن عرض أخيه، رَدَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة، وأعتقه من نار حَرُّهَا شديدٌ، وعذابها مُوجِعٌ أَلِيمٌ، وَمَقَامِعُهَا من حديد، كما روى الإمام أحمد من حديث أسماء بنت يزيد ﵂ا أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ ذَبَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ بِظَهْرِ بِالْغَيْبَةِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُعْتِقَهُ مِنَ النَّارِ**» [٢].

وروى الترمذي من حديث أبي الدرداء ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخِيهِ، رَدَّ اللهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» [٣].

---

(١) المبتكرات في الخطب والمحاضرات، الشيخ/ وحيد عبد السلام بالي ص: ٢٤١.

(٢) صحيح لغيره: رواه الإمام أحمد بإسناد حسن وصححه الألباني في (صحيح الترغيب)، برقم: (٢٨٤٧).

(٣) صحيح لغيره: رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح، وصححه الشيخ الألباني برقم: (١٩٣١)، وأحمد برقم: (٢٦٩٩٥).

أما قوله ﷺ: «وليحفظ البطن وما حوى».

أي: تحفظ كل ما يدخل في جوفك حتى يستقر في معدتك من شبهة الحرام، لأن (كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به) والسُّحْتُ هو: أكل الحرام، والمعنى: أن كل قطعة لحمٍ نبتت في جسدك، وكبرت ونمت من الحرام وأصبحت عضلات تجري فيها الدماء فهي حرام وأنت مسئولٌ ومحاسبٌ عنها يوم القيامة، وليس الأمر عند ذلك الْحَدِّ فقط، بل أنت مسئولٌ أَيْضًا عن النطفة التي خرجت منك إلى زوجتك وصارت بعد ذلك طِفْلاً، أنت مسئول عنها أيضًا، لتصبح مسئولاً بين يَدَيْ مَوْلاَكَ يسألك الله عنها يوم القيامة، ويسألك ولدك أيضًا عنها وأنت موقوفٌ عند السؤال في اليوم الذي يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرءٍ منهم يومئذ شأن يغنيه.

أَذْكُرُ يَوْمًا وكنت أستقل القطار عائدًا من المدينة إلى قريتي، وكان ذلك في أوائل السبعينات حيث كنت في المرحلة الإعدادية آنذاك، وقد ركب بجواري رَجُلٌ يظهر عليه أنه مُوَظَّفٌ حُكُومِيٌّ وظهرت على هيئته علامة الأُبَّهَةِ في ثيابِهِ: البنطلون الشيك، والقميص الشيك، والحذاء اللامع، وبعد أن اطمأن جالسًا تكلم بصوتٍ مسموعٍ، وكأنه يريد أن يقول لي شيئًا، فقال ما رأيك في بطنٍ قد اعتادت على الحرام؟ فقلت وأنا أتلعثم الكلمات: أنها لا تَشْبَعُ أَبَدًا فقال الرجل وكأنهُ قد سمع عِبَارَةَ إِنْقَاذٍ، وأشار إلى نفسه وقال: أنا، فقلت: ولم تقول عن نفسك هكذا؟ قال: لأنني أريد أن أتخلص مما أنا فيه، ولا أقدر، وكلما جلست إلى نفسي وحاولت أن أمتنع عن ذلك، جَرَّتْنِي نَفْسِيَ الأَمَّارَةُ بِالسَّوءِ إلى ما أنا فيه، حتى أصبحت بطني هي الأخرى تجرني إلى ذلك، ثم أقسم لك: أن زوجتي كانت تُجَهِّذُ للغداء

دجاجتين، دجاجة لها وللأولاد، ودجاجةٌ آكُلُهَا وَحْدِي، وإذا انتقص منها شَيْئًا أُحُسُّ بأحشائِي تَدْفَعُنِي دَفْعًا، لأتزود من الطعام ما بقي، فقلت له: هذا مَرَضٌ وعليك بالعلاج، قال: هذا ليس مَرَضٌ عُضْوِيٌّ، ولكنهُ مَرَضُ السَّرِقةِ. قلت: وكيف؟ قال أنا أعمل في مخازن الزراعة، وهذا المخزن يتبع جمعية زراعية، ويوجد بالمخزن مواد سائلة لرش المحصولات الزراعية، كالقطن والأرز وغيرهما من المحصولات الزراعية، ثم أذهب إلى المخزن لَيْلاً وآخذ المبيد الخاص برش تلك المحصولات وأضعه في (جركل كبير) ثم أضع مكانه (الكيروسين) وأقوم ببيعه في السوق السوداء وأصرف على نفسي وأولادي، وكنت أتمنى في تلك الآونة أن يطول الحوار، وتطول المسافة، لكن القطار وصل إلى محطة البلدة التي كنت أقطن فيها، ونزلت من القطار، وأنا ساعتها لاَ أَعِيَ مَا يُقَالُ في تلك الآونة إلا قليلاً، ولكنني عندما قرأتُ وَعَيْتُ ما قاله هذا الرجل، علمتُ حَقًّا أَنَّ بركةَ النفس والجسد والولد، وَالْمَطْعَمُ الطيبُ، يثمر الثمر الطيب بكسب اليد الحلال، ولا يبارك الله فيه، إلا بالكسب الطيب الحلال الممزوج بالعرق والتي تُحِسُّهُ النَّفْسُ الطيبةُ عندما تتساقط حَبَّاتُهُ الممزوجة بالراحة والسعادة والهناء على الخدود والوجنات [1] أهـ.

قال الحق - جل وعلا: {وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ} [البقرة: ١٨٨].

{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ} [النساء: ٢٩].

أي: أن الله تبارك وتعالى حَرَّمَ أكل أموال الناس بما لا تُبِحْهُ

(١) أ. هـ هذه ليست قصة تروى ولكنها حقيقة حدثت، وكنت طرفًا في الحوار مع صاحبها.

الشريعة، أي: بِغَيْرِ وَجْهٍ شَرْعِيٍّ، كالرشوة والغصب والسرقة والرَّشْوَةِ قد لعنها رسول الله ﷺ، فقال في الحديث الذي أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللهُ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي- وَالرَّائِشْ»، وفي رواية أخرى: «لَعَنَ اللهُ الرَّاشِي وَالْمُرْتَشِي فِي الْحُكْمِ»[1].

والرائش: هو الواسطة الذي يمشي بينهما، وأما الراشي وهو الذي أعطى لم يسلك له العمل المطلوب مثل الهدية، وأما المرتشي هو الذي اغتصب مالاً، أو هديةً بغير حق وسيسأل عنه يوم تَبْيَضَّ وجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ.

أَمَّا الغَضْبُ وَالسَّرِقَةُ، فَهُوَ أَخْذُ مَا لَيْسَ لَهُ حَقٌّ فيهِ قَهْرًا، أو ظُلْمًا، أو احْتِيَالاً، أَوْ خِلْسَةً دون أن يراهُ النَّاسُ.

ولذلك وجب على القاضي، أو الذي يحكم في مثل هذه الأحكام خارج المحكمة كالجلسة العرفية أن يَتَحَرَّ الدقة في تلك الأمور، فإذا تيقن وقضى بنحو ما يرى عن بصيرةٍ وعلمٍ وَتَشَهَّدَ به الشهود، وأيقن أنه لا يحلُّ حَرَامًا، وَلاَ يُحَرِّمُ حَلاَلاً، فهو مأخوذ على نيته، ومأجورٌ عليها بإذنه تعالى، لأن القاضي بَشَرٌ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، والمعصوم هو محمد ﷺ، فقد ورد في الحديث المتفق عليه من حديث أم سلمة ﷺا أن رسول الله ﷺ قال: «أَلاَ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّمَا يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنما هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ نَارٍ فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ لِيَذَرَهَا»[2].

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده، والترمذي، والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وجاء في الروض النضير برقم (٥٥٤/١)، وغاية المرام (٤٥٧)، والإرواء (٢٦٢١)، وجاء في صحيح الجامع برقم: (٥٠٩٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٣٤) و(٦٥٦٦)، وأبو داود (٣٥٨٣)، والترمذي (١٣٣٩)، والنسائي في (المجتبى) (٥٤١٦) و(٥٤٣٧) وفي (الكبرى) (٥٩٨٥)، وابن ماجة

فَدَلَّ الحديثُ على أن حُكْمَ الْحَاكِمِ لا يغير الشيءِ في نفس الأمرِ، فلا يُحِلُّ في نفس الأمر حَرَامًا هو حَرَامٌ، وَلاَ يُجَرِّمُ حَلاَلاً هو حَلاَلٌ، وإنما هو مُلْزِمٌ في الظاهر، فإن طَابَق في نفس الأمر فذاك، وَإِلاَّ فَلِلْحَاكِمِ أَجْرُهُ وعلى الْمُحْتَالِ وِزْرُهُ [1] أهـ.

وَالْفَرْجُ مُتَّصِلٌ بِالْبَطْنِ، وقد أوجب رسول الله ﷺ الجنة لمن حافَظَ على فَرْجِهِ، فقد جاء في مسند الإمام أحمد، وصحيح ابن حبان، والحاكم من حديث عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمْ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ» [2].

وقد جعل الله سبحانه وتعالى حفظ الفرج سببًا من أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيكون في حفظ مائة، واعتياده على الحلال، فمن اعتاد الحلال، فلا يرى المتعة إلاَّ في حِلِّهِ، ولا يرى الجمال إلاَّ عندها، أي: زوجته، كما جاء في قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾} [المؤمنون: ١ - ٦].

فدلت آية حفظ الفرج على تعليق فلاح العبد على حفظ فرجه،

(٢٣١٧)، ومالك (٤٦٣)، والشافعي (٧٣١)، وأحمد (٣٥١٤٢)، وابن أبي شيبة (٤٢٦/٨)،
وأبو يعلى (٦٨٨١)، وابن حبان (٥٠٧٠)، والطبراني في (الكبير) (٨٠٣)، والدارقطني (٢٣٩/٤)، والبيهقي (٢١٠٨٨)، من حديث أم سلمة ﷺا.

(١) صحيح تفسير ابن كثير، (٢١٩/١).

(٢) حديث حسن: أحمد (الفتح الرباني) (١٩/١٩٧/٨٢)، وصحيح ابن حبان (٦٣٢/٢٥٤٧)، والحاكم (٤/٣٥٩)، والسلسلة الصحيحة (١٤٧٠)، وصحيح الجامع برقم: (١٠١٨).

وأنه لا سبيل له إلى الفلاح بدونه.

وتضمنت هذه الآية ثلاثة أُمُورٍ:

- من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين.

- من لم يحفظ فرجه أصبح من الملومين.

من لم يحفظ فرجه أصبح من العادين، ففاته الفلاح واستحق اسم العدوان ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها، أيسر من بعض ذلك، وقد أمر الله نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم، مُطِّلِعٌ عليها، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر، جعل الأمر بغضه مقدمًا على حفظ الفرج، فإن الحوادث مبدؤها من النظر، كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر، ثم تكون نظرةٌ، ثم تكون خطرةٌ، ثم خطوةٌ، ثم خطيئةٌ، ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات، والخطرات، واللفظات، والخطوات، فينبغي للعبد أن يكون بَوَّابَ نفسه على هذه الأبواب الأربعة، ويلازم الرباط على ثغورها [1] أهـ.

وقد روى الطبراني من حديث عبد الله بن بديل أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَا نَعَايَا الْعَرَبِ، يَا نَعَايَا الْعَرَبِ، ثَلاثًا، إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الرِّيَاءَ، وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ**» [2].

(١) أ. هـ محاسن التأويل للقاسمي: (٢٩٥/٧).

(٢) أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير)، وابن عدي في (الكامل) (ق٢/٢٢٠)، وأبو نعيم في (الحلية) (١٢٢/٧) و(أخبار أصبهان) (٦٦/٢)، والبيهقي في (الزهد) (٣٧/٢/٢)، من طريق عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي عن الزهري عن عباد بن نعيم عن عمه مرفوعًا، ورواه ابن أبي حاتم (١٥/٢/٢) والهيثمي في (المجمع) (٦٥٥/٦)، والمنذري

ومعنى: (يا نعايا العرب) أو يا نعاء العرب، أي: هلكت العرب بموت فلان، والناس في تلك الآونة إذا توفى كبير العائلة يرسلون (المنجب) والذي ينادي في عربة سيارة تسير لتطوف شوارع البلدة ومعلق عليها ميكروفون وينادي ويقول: توفي إلى رحمة الله تعالى: كبير عائلة فلان الفلاني ثم يعدد شخصيات العائلة حسب سنهم ومؤهلاتهم.

أما قوله ﷺ: «والشهوة الخفية» أي: من كان يختلس النظرة التي تحدث في قلبه شهوة خفية تؤثر على أعضائه، فقد حكم رسول الله ﷺ على الأمة التي بها مثل هذه الخصال بالفناء، ولو كانوا أحياء.

وأخرج الترمذي، وابن حبان من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ وَقَاهُ اللهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ»[1].

ومعنى قوله ﷺ: «أن يذكر الموت والبلى»، وَالْبِلَى، أي: من بلى الشيء إذا صار خلقًا متفتتًا، يعني تتذكر صيرورتك في القبر إذا صارت عظامًا متناثرةً[2] أهـ.

لذا وجب على ابن آدم أن يذكر الموت في أي وقتٍ أَحَسَّ فيه

في (الترغيب) (١٩٠/٣)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: (٥٠٨).

(١) أخرجه الترمذي (٦٢/٢)، وابن حبان (٢٥٤٦)، وأخرجه ابن أبي الدنيا في (الصمت) (٢٠/٤٢)، وأخرجه أحمد برقم: (٣٦٢/٥)، وأخرجه الحاكم (٣٥٧/٤) من طريق أبي واقد عن إسحاق مولى زائدة عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من حفظ ما بين لحييه ورجليه دخل الجنة»، وصححه الألباني في (السلسلة الصحيحة) برقم: (٥١٠).

(٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: (٣٣١/٦).

بغلظة قلبه، لأن في ذكر الموت ترقيق للقلوب الغليظة، فإذا أردت تليينها، وأن تذهب لله طائعةً ذَكِّرْهَا بالموت، ثم قُمْ بتذكيرها أيضًا في كل صلاةٍ تقيمُها بين يَدَيْ مَوْلاكْ، كما جاء في سياق حديث الإمام أحمد، وابن ماجة من حديث أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيَّ ﷺ أنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبي ﷺ فقال: عِظْنِي وَأَوْجِزْ، فَقَالَ: «إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ»(١).

أي اعتبرها آخر صلاة لك، فاجعلها أمنيتك في الحياة لو حضرك الموت، فإن قيل لك تَمَنَّ، فتتمنَّى أن تصلي ركعتين، فإن ذلك يعينك على أن لا تُحَدِّثَ نَفْسَكَ بِشَيْءٍ من أمور الدنيا التي سَتُوَدِّعُهَا وتخرج منها، ويعينك على الإقبال بقلبك ووجهك على الله تعالى، ولذلك قال تعالى: {وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾} [البقرة: ٤٥].

فوصف الصلاة بِالْكِبَرَ وَالثِّقَلَ وَالْمَشَقَّةَ، واستثنى الخاشعين، فإنها سهلة يسيرة عليهم، ثم وصفهم بقوله: {ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَ�ٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾} [البقرة: ٤٦].

فهم يعتقدون أنهم إلى الله راجعون وبين يديه موقوفون، وأمام الله مسئولون، فهم مشفقون من ذلك كله، ويعلمون أنه الحق من ربهم، ويظنون أنهم قد يلقونه في هذه الصلاة وهم قائمون بين يديه، أو بعد انصرافهم منها، بحيث أنهم إذا قاموا في الصلاة لا يظنون أنهم سَيُصَلُّونَ غيرها، وبذلك وَصَّى النبي ﷺ فقال: «اذْكُرِ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِكَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةً غَيْرَهَا»(٢).

---

(١) حديث صحيح: أحمد (الفتح الرباني) (١٩/١٨٥/٣٧)، وسنن ابن ماجة (٢٠/١٣٩٦/٤١٧١) والسلسلة الصحيحة برقم: (٤٠١)، وصحيح الجامع برقم: (٧٤٢).

(٢) الحديث: حسن صحيح، جاء في مسند الفردوس للديلمي، وحسنه الحافظ ابن حجر، وجاء في السلسلة الصحيحة للألباني برقم: (١٤٢١)، وصحيح الجامع برقم: (٨٤٩-٤٠٧).

فيا عبد الله إذا قمت للصلاة فاجعل القبلة أمامك، والصراط تحتك، والجنة عن يمينك، والنار عن شمالك، وملك الموت وراءك، وتأمل إلى أين تسير [1].

وحاول دائمًا أن يذكّرك كل شيء متعلق بالصلاة بلقاء الله، فإذا سمعت المؤذن ينادي للصلاة فتذكر قول الله: {وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ} [ق: ٤١ - ٤٢].

فإذا طَهَّرْتَ ظاهرك بالوضوء، وسترت عورتك بالثياب، فاعلم أن باطنك أولى بذلك كله، لأنه مَحَلُّ نظر الله ﷻ، كما جاء في صحيح مسلم، وسنن ابن ماجة من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى: لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ» [2].

فاستح من الله أن تُطَهِّرَ ظاهرك دون باطنك، وأن تُجمِّلُ جسمَك دون قلبك، وإذا خرجت من البيت إلى المسجد فَتَذَكَّرْ خروجك من القبر إلى أرض المحشر، فإذا جلست في المسجد تنتظر الإقامة فتذكر قيامك في أرض المحشر تنتظر مجيء الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء، فإذا أقام المؤذن الصلاة فتذكر بهذا النداء، النداءَ الخاصَّ يوم القيامة، يوم يقوم الملك: أين فلان بن فلان؟ ليقم للعرض على الملك الديان، فإذا قمت من مكانك في المسجد تسعى إلى الصف فتذكر سعيك يوم القيامة بين يَدَيْ الملكين، كما جاء في قوله

(١) إحياء علوم الدين: (١/١٥١).
(٢) مختصر مسلم برقم: (١٧٧٦)، وغاية المرام برقم: (٤١٥)، وصحيح الجامع برقم: (١٨٦٢).

تعالى: {وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾} [ق: ٢١] [(١)] أهـ.

مَثِّلْ وقُوْفَكَ يومَ الحَشْـرِ عُرْيَانَـا ::: مُسْتَعْطِفاً قَلِقَ الأحْشَـاءِ حَيْرَانَـا
النَّارُ تَظْفُرُ مِنْ غَيْظٍ وَمِـنْ حَنَـقٍ ::: على العُصَاةِ وتَلْقَ اَلْـرَّبَّ حَيْرَانَـا
اقْرَأْ كِتَابَكَ يا عَبْديْ عَلَـى مَهَـلٍ ::: فَهَلْ تَرَى فِيهِ حَرْفًا غَيْرَ مَا كَانَـا؟
لَمَّا قَرَأتَ كِتَابًـا لا يُغَـادِرُ لِـي ::: صَغِيرَةً وَلاَ مَا كَانَ فِيْ سِرٍّ وَإعْلاَنَا
قَال الجَلِيْلُ خُـذُوْهُ يَـا مَلاَئِكَـتِي ::: مُرُوا بِعَبْدِي إِلَىْ النِّيرانِ عَطْشَـانَا
فَيَا رَبِّ لا تُخْذِنَا يَـوْمَ الحِسَـابِ ::: وَلا تَجْعَلْ لِنَارِكَ فِينَا الْيَوْمَ سُلْطَانَا

* * *

(١) الوصايا المنبرية، للشيخ/ عبد العظيم بدوي الخلفي ص: (٢٠٦-٢٠٧).

وَقْفَةٌ صَادِقَةٌ

فيا عبد الله قف مع نفسك وَقْفَةً صَادِقَةً... حاسب فيها نفسك، وراقب فيها ربك، وَعَدِّلْ فيه سَيْرَكَ إلى الله، وَتَحوَّلَ من الغفلةِ إلى اليقظةِ، ومن الكسل والفتور إلى الْجِدِّ والنشاط ومن التكالب على الدنيا إلى المسارعة إلى الآخرةِ، ولتعلم يا عبد الله أنك الآن فوق الأرض، وَغدًا سَتَصِيرُ تحت الأرض.

مَـــالِي رَأَيْتُـــكَ تَطْمِـــئُنُّ ::: إِلَـــى الْحَيَـــاةِ وَتَـــرْكَنُ
يَاسَـــاكِنَ الْحُجْـــرَاتِ مَـــا ::: لَـــكَ غَيْـــرَ قَبْـــرِكَ مَسْـــكَنُ
فَـــالْيَوْمَ أَنْـــتَ مُكَـــاثِرٌ ::: وَمُفَـــاخِرٌ تَتَـــزَيَّنُ

وَغَـــدًا تَصِـــيرُ إِلَـــى التُّـــرا ::: بِ مَحُـــنَّطٌ وَمكَفَّـــنُ
أَحْـــدِثْ لِرَبِّـــكَ تَوْبَـــةً ::: فَسَـــبِيلُهَا لَـــكَ مُمْكِـــنُ

وَاصْـــرِفْ هَـــوَاكَ لِخَوْفِـــهِ ::: مِمَّـــا تُسَـــرُّ وَتُعْلِـــنُ
فَكَـــأَنَّ شَخْصَـــكَ لَـــمْ يَكُـــنْ ::: فِـــي النَّـــاسِ سَـــاعَةَ تُـــدْفَنُ
وَكَـــأَنَّ أَهْلَـــكَ قَـــدْ بَكَـــوْا ::: جَزَعًـــا عَلَيْـــكَ وَرَنَّنُـــوا
فَـــإِذَا مَضَـــى لَـــكَ جُمْعَـــةٌ ::: فَكَـــأَنَّهُمْ لَـــمْ يَجْزَنُـــوا
وَالنَّـــاسُ فِـــي غَفَلَاتِهِـــمْ ::: وَرَحَـــى الْمَنِيَّـــةُ تَطْحَـــنُ

فيا عبد الله: تَذَكَّرْ نفسك وأنت على فراشِ الموت وحولك الأهلُ والأصحابُ، والإخوانُ والأحبابُ لكنهم لا يملكون لك حَوْلاً ولا طَوْلاً، ولا يملكون لك نفعًا ولا ضرًّا، وأنت تودِّعُ الدنيا بنظراتِ الأسى والحزن على ما فاتك من تقصيرٍ وتسويفٍ، وتودع أطفالك الصغارَ، وأهلك وعشيرتك... في ساعة الفراق، وكأنك تقول لهم: يا أهلي يا أبنائي، عَمَّرْتُ في الدنيا طويلاً، وجمعتُ المال من حِلِّهِ وحرامهِ، وبنيت الدُّورَ

وسكنت القصورَ، ثم ها أنا أرحلُ عنها، لا آخذ معي شيئًا منها.

- ثم تذكر نفسك وأنت مُسَجًّى على فراش الموت وحولك الأطباءُ والأحباءُ والأعزاءُ، يَمُدُّ أحدهم يَدَهُ إلى أنفك ليتيقَّنَ مِنْ تَرَدُّدِ نفسك، ويضعُ أحدُهم يَدَهُ على صدرك ليتحقق من ضربات قلبك، ولكن هيهات هيهات، لقد تَوَقَّفَ النَّفَسُ، وَسَكَنَ القلبُ، وَشَخَصَتِ العينانِ، وامتدتِ الرجلانِ، {وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾} [ق: ١٩].

يقلبونك على بطنك فلا تستطيع أن تعتدل، وأخرى على ظهرك فلا تتحرك، وسالت الدموعُ من حَوْلِكَ، بكى أبناؤُكَ وَحَزِنَ أصدقاؤُكَ، وقاموا ليشتروا لك الكفن وَيُسَخِّنُوا لك الماء ليغسلوكَ ويجهزونك، وفي التُّرَابِ يضعوكَ، وفي حُفْرَةٍ ضَيِّقَةٍ يَتْرُكُوكَ.

- ثُمَّ تَذَكَّرْ نَفْسَكَ وأنت على خشبة الغُسْلِ مَوْضُوعٌ.

- أَيْنَ يَدَاكَ الْقَوِيَّتَانِ اللَّتَانِ كنتَ تَبْطِشُ بهما في الدنيا؟

قَدْ مَاتَتَا.

- أَيْنَ رِجْلاَكَ الْقَوِيَّتَانِ اللتان كنت تَدِبُّ بهما على ظهر الدنيا؟

قَدْ ضَعُفَتَا.

- أَيْنَ عَيْنَاكَ الْجَمِيلَتَانِ اللتان كنت تنظر بهما إلى الحلال والحرام؟

قَدْ عَمِيَتَا.

- أَيْنَ لِسَانُكَ الَّذِي كان لاَ يَفْتُرُ من الكلامِ والسخرية والاستهزاءِ؟

قَدْ يَبِسَ.

- أَيْنَ بَطْنُكَ الَّذِي امْتَلأَ مِمَّا لَذَّ وَطَابَ؟

قَدْ خَنَعَ.

- أَيْنَ قُوَّتُكَ... أَيْنَ سُلْطَانُكَ... أَيْنَ جَاهُكَ؟

- أَيْنَ أَمْوَالُكَ... أَيْنَ عِمَارَاتُكَ... أَيْنَ تِجَارَاتُكَ؟

- أَيْنَ عِزُّكَ... أَيْنَ أَنْتَ، وَإِلَى أَيْنَ ذَاهِبٌ؟

{إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾} [القيامة: ٣٠] [1] أهـ.

ثم يختم رسول الله ﷺ حديثه الجامع الماتع بقوله: «ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا» لأنهما لا يجتمعان في قلب رَجُلٍ وَاحَدٍ، ولا يجتمعان على وجه الكمال على وتيرةٍ واحدةٍ، لأنهما كالضرائر استحالة أن تُرْضِي إحداهما فإن أرضيت واحدة، أغضبت الأخرى، كما جاء في سياق الحديث الذي رواه الإمام أحمد والحاكم من حديث أبي موسى ٱلأَشْعَرِيِّ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ، أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ، أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى» [2].

وقوله ﷺ: «فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء».

أي: فمن فعل كل ما سبق من الحديث حَقًّا بكل ما فيه، فقد استحيا من الله حق الحياء، ومن استحيا من الله في السِّرِّ وَٱلْعَلَنِ لاَ يُعَذِّبُهُ اللهُ أبدا.

* * *

(١) المبتكرات في الخطب والمحاضرات، للشيخ/ وحيد عبد السلام بالي، ص: (٧٢-٧٣).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك في (٤٤) كتاب الرقاق (الحديث ١٠/٧٨٥٣) عن أبي موسى الأشعري ﷺ، ورواه الإمام أحمد في مسنده الحديث رقم ١٩٧١٨، ج٢، من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

وَطَوْقُ النَّجَاةِ يُصْبِحُ فِي الْحَثِّ عَلَى الاِجْتِمَاعِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْفُرْقَةِ

أَجْمَلُ ما كان في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ والصحابة الكرام، هو وحدة الصف، ووحدة الهدف، والاجتماع على كلمةٍ سواء، فألف رسول الله ﷺ قلوب الصحابة الغليظة الجافة، إلى القلوب اللَّيِّنةِ الرحيمةِ بعد أن زرع فيها العقيدة السامية الغَرَّاء، فَأُتَمِرُوا بِأَمْرِه، واجتمعوا على رأيه، وقد سُمِّيَ رسول الله ﷺ أبو المؤمنين حيث قال تعالى: {ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ} [الأحزاب: ٦].

وَسُمِّيَ رسول الله ﷺ بهذه الكنية لأنه طَوَّعَ قلوب الصحابة رضوان الله عليهم وجعلها تأتمر بأوامره وتنتهي بنواهيه، لأنه غَيَّرَ وَجْهَةَ هذه القلوب وَحَوَّلَهَا سَرِيعًا من الغلظةِ القاسيةِ التي توارثوها من حياة الصحراء وجمودها إلى رِقَّةِ المشاعر، وخشوع الجوارح، فجعلها تأتمر بأمر الله وتنتهي عَمَّا نَهَى الله، يقول ابن تيمية: (إن الإسلام لم يجيء لإزالة الفطرة الإنسانية، بل إنه يوجهها توجيهًا نافعًا، فإن الفطرة الأولى لا تزول، ولكن تُحَوَّلُ، فلقد صرف النبي ﷺ شجاعة العرب في المنافسات القبلية، والتقاتل، وأخذ الثأر، والأحقاد القديمة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى وأعطى النفس حقها في الترويح والنشاط، ويعني ذلك: أنه ﷺ لم يكبت الدوافع الفطرية، كما وأنه لم يطلق لها العنان، وإنما طوَّعها بالاستعلاء، فربطها بِالْمُثُلِ العليا فاستجابت طَائِعَةً منها لدين ارتفع إلى أعلى، فقد رُوِيَ في الجامع الصغير: «إِنَّ اللهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ» [1].

(١) حسن موقوف: على عبد الله بن مسعود ﷺ، رواه الإمام أحمد في المسند (٣٥٨٩)، راجع تخريج الطحاوية للشيخ الألباني ص: ٥٣٠.

وهذا يعني أن محمدًا ﷺ استجمع خصائص القيادة التي أَهَّلَتْهُ للرسالة، وأن الصحابة الذين تَرَبَّوْا تحت إشراف الوحي الأعلى كانوا أهلاً لجنديته تحقق بها سعادة الدارين [1] أهـ.

لأنهم هم خير أمة أخرجت للناس في زمانهم وإلى قيام الساعة وهذه الآية تدل على خَيْرِيَّتِهِمْ، وأنهم هم الأفضل في أمتهم، كما جاء في قوله تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠].

لأنهم تركوا أوطانهم وأموالهم وأولادهم وهاجروا إلى الله بقلوبهم، فآمنوا برسوله حين كفر به الناس، وصدقوه حين كذبه الناس، ونصروه حين خذله قومه، وجاهدوا معه في رفع كلمة لا إله إلا الله حين تحدَّاهُ قَوْمُهُ الذين أخرجوه من بين أهله وبلده التي كانت أحب بلاد الله على قلبه، فقد جاء في حديث الترمذي، وابن حبان، والحاكم من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلاَ أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ، مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ» [2]. أما أصحابه فهم الذين آمنوا به وعَزَّرُوهُ ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون، كما قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ الْقَرْنُ الَّذِي أَنَا فِيهِ، ثُمَّ الثَّانِي، ثُمَّ الثَّالِثُ» [3].

ولذلك فقد ربط رسول الله ﷺ الصحابة بالوحي الأعلى بعد هجرته إلى المدينة وكانت أول خطوة خطاها بعد هجرته هو بناء المسجد النبوي، وهو الذي انطلقت من خلاله الدعوة، وتحركت

(١) تربية الأولاد في الإسلام، محمد محمود عمارة، ص: ٣٢٦.
(٢) المشكاة (٢٧٢٤)، وصحيح الجامع برقم: (٥٥٣٦ - ١٧٦٩).
(٣) مسلم: (١٩٦٥/٤).

القلوب طائعة مستجابة لأمر ربها، لأنها كانت تَوَّاقَةً بنزول الوحي على محمد ﷺ الذي آثر القلوب، فتنافست جميعًا أيهما يصل إلى ما يُرْضِي الله ورسوله.

ثانيًا: المُؤَاخَاةُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ: بعدما قام النبي ﷺ ببناء المسجد النبوي الذي هو مركز التجمع والتآلف، قام بعمل آخر من أروع ما يأثره التاريخ، وهو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، **قال ابن القيم:** ثم آخي رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، وبهذه المؤاخاة ذابت عصبيات الجاهلية، وسقطت فوارق النسب واللون والوطن، فلا يكون أساس الولاء والبراء إلا الإسلام، وقد امتزجت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة وإسداء الخير في هذه الأُخُوَّةِ التي ملأت المجتمع الجديد بأروع الأمثال.

روى البخاري: أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الرَّبيع، فقال لعبد الرحمن: إني أكثر الأنصار مالاً، فاقسم مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لي، أُطَلِّقْهَا، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، وأين سوقكم؟ فَدَلُّوهُ على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقطٍ وسمينٍ، ثم تابع العدو، ثم جاء يومًا وبه أثر صُفْرَة، فقال النبي ﷺ: «مُهَيْمَ» أي: ما شأنك؟ قال: تزوجت. قال: «كَمْ سُقْتَ إليها؟» قال: نواةٌ من ذهب [1].

وروى عن أبي هريرة أنه قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم

(١) البخاري: باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار برقم (٥٥٣/١)، والنواة من الذهب كانت قيمتها يومئذ خمسة دراهم، وقيل: كان قدرها ربع دينار.

بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: (لا)، فقالوا: فتكفونا المؤنة ونشرككم في الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا [1].

وهذا يدلُّ دَلاَلَةً وَاضِحَةً على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين، ومن التضحية والإيثار والودِّ والصفاء، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم حَقَّ قَدْرِهِ، فلم يَسْتَغِلُّوهُ، ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أَوَدِهِمْ، وحقًا فقد كانت هذه المؤاخاة حكمةً فَذَّةً، وسياسةً حَكِيمَةً، وَحَلاًّ رشيدًا لكثير من المشاكل التي كان يواجهها المسلمون، وكما قام رسول الله ﷺ بعقد هذه المؤاخاة بين المؤمنين، قام بعقد معاهدة أزاح بها ما كان بينهم من حزازاتٍ في الجاهلية، وما كانوا عليه من نزعاتٍ قبليةٍ جائرةٍ، واستطاع بفضلها إيجاد وحدة إسلامية شاملة [2] أهـ.

وبهذه الحكمة الرشيدة وهذا التدبير الحكيم أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد ربط فيه التعليم بالتربية، وتزكية النفوس، والحث على مكارم الأخلاق، وَأَدَّبَهُمْ بِآدَابِ المحبةِ والودِّ والإخاءِ، وطوَّع القلوبَ على الطاعة والعبادة، فحث على إعطاء الأمان للجار، وَحَذَّرَ من الشَّرِّ الذي يصيبه الجار لجاره، فقال في الحديث الذي رواه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةُ مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**» [3].

---

(١) البخاري: باب إذا قال: اكفني مؤنة النخل.. إلخ مع فتح الباري (٣٣٧/٤)، ح (٢٠٤٩) وأيضًا: (٢٢٩٣، ٣٧٨١، ٣٩٣٧، ٥٠٧٢، ٥١٤٨، ٥١٥٣، ٥١٥٥، ٥١٦٧، ٦٠٨٢، ٦٣٨٦)، وقصة المؤاخاة مروية في صحيح مسلم ح (٢٥٢٩)، وسنن أبي داود ح (٢٩٢٦)، والأدب المفرد ح (٥٦١)، ومسند أبي يعلى (٣٦٦/٤) وغيرها من الكتب.

(٢) الرحيق المختوم، للشيخ/ صفي الرحمن المباركفوري، ص: (١٧٥-١٧٦).

(٣) مختصر مسلم برقم: (٣٣)، والسلسلة الصحيحة برقم: (٥٤٩)، ومشكاة المصابيح برقم: (٤٢٢/٢)، وصحيح الجامع برقم: (٧٦٧٥).

ومن أجل مزيد من الأمن والأمان قد جعل رسول الله ﷺ شعار المسلمين إفشاء السلام، وجعله أيضًا البوَّابة الحقيقية لدخول الجنة، فقد جاء في مسند الإمام أحمد وغيره من حديث عبد الله بن سلام أن رسول الله ﷺ قال: «أَيُّهَا النَّاسُ: أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الْأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ» (١).

ثُمَّ حَثَّ النبي ﷺ على حب المؤمن لأخيه المؤمن وجعله من علامات الإيمان، فقد جاء في مسند الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» (٢).

وجعل رسول الله ﷺ المؤمن بجوار المؤمن يشد عضده ويقويه، كالجدار المتماسكُ القويُّ الذي رُبِطَ بِالأُخُوَّةِ الإسلاميةِ، وَدُعِّمَ بالمحبةِ الأبدِّية، فقد جاء في البخاري ومسلم، والترمذي، والنسائي من حديث أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» (٣).

ثم حَثَّ رسول الله ﷺ على الإحسان والعطاء، وَرَغَّبَ في إطعام الْجَوْعَى، وجعل من يطعمهم، أو يسقيهم، أطعمه الله من ثمار الجنة، وسقاه من الرحيق المختوم.

---

(١) رواه الترمذي، والإمام أحمد، وابن ماجة، والحاكم، والدارمي، وجاء في المشكاة برقم: (١٩٠٧)، وفقه السيرة برقم: (٢١٣)، والسلسلة الصحيحة برقم: (٥٦٩)، وصحيح الجامع برقم: (٧٨٦٥-٢٩٦٠).

(٢) البخاري: (٦/١)، ومختصر مسلم: (٢٤)، والسلسلة الصحيحة برقم: (٧٣)، وصحيح الجامع برقم: (٧٥٨٣).

(٣) مختصر مسلم (١٧٧٣)، تخريج مشكلة الفقر (١٠٤)، إيمان ابن أبي شيبة (٩٠)، مشكاة المصابيح (٤٢٢/٢)، وصحيح الجامع برقم: (٦٦٥٤).

كما قال رسول الله ﷺ: « أَيُّمَا مُسْلِمٍ كَسَا مُسْلِمًا ثَوْبًا عَلَى عُرْيٍ كَسَاهُ اللهُ مِنْ خُضْرِ الْجَنَّةِ، وَ أَيُّمَا مُسْلِمٍ أَطْعَمَ مُسْلِمًا عَلَى جُوعٍ أَطْعَمَهُ اللهُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ، وَأَيُّمَا مُسْلِمٍ سَقَى مُسْلِمًا عَلَى ظَمَأٍ سَقَاهُ اللهُ مِنَ الرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ» (١).

ثم حَرِصَ رسول الله ﷺ بربط الجار بأخيه الجار بالمودة والحب والإيثار، فجعل الجار يطمئن على جاره في الجوع والشِّبَعِ، فقد جاء في الأدب المفرد للبخاري، والطبراني في الكبير، والحاكم، وسنن البيهقي، من حديث ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالَّذِي يَشْبَعُ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ» (٢).

استطاع رسول الله ﷺ أن يربط المسلمين بعضهم بعضًا بأجمل الأسس وأسمى المعاني، فحرص على أن يتنافس المسلمون فيما بينهم على الإيثار والتفاني في الإنفاق، ومكارم الأخلاق، لذا استطاع في فترة وجيزة أن يبني في المدينة مجتمعًا جديدًا أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ، وهو ما لم تستطع أن تفعله الفرس والروم في أكثر من ثمانية دهور، فتكاملت عناصر المجتمع الجديد الذي واجه كل تحديات الملوك والجبابرة، وواجه كل التيارات الضالة حتى صرف وجهتها، وَحَوَّل مجرى التاريخ والأيام في سنوات قصار، كل ذلك من أجل وحدة الهدف، والحث على الاجتماع والجماعة، لأن الإسلام حث على ذلك وَرَغَّبَ فيه ودعا إليه في الأمور حتى في العبادات، قال تعالى: {إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ} [الصف: ٤].

---

(١) البخاري: (١/١٩٠)، (٢/٨٩٠).

(٢) السلسلة الصحيحة برقم: (١٤٩)، والمشكاة برقم: (٤٩٩١)، وصحيح الجامع برقم: (٥٣٨٢).

جاء في (الإكليل للسيوطي) قوله تعالى: {كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ} [الصف: ٤]، استحباب قيام المجاهدين في القتال صفوفًا كصفوف الصلاة، وأنه يستحب سَدّ الْفُرَجِ والخلل في الصفوف، وإتمام الصف الأول فالأول، وتسوية الصفوف قدمًا بقدم، لا يتقدم بعض على بعض فيها، قال ابن الْفَرَسِ: واستدل بها بعضهم على أن قتال الرجالة أفضل من قتال الفرسان؛ لأن التراصَّ إنما يكن منهم [1] أهـ.

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام أنه قال: تَذَاكَرْنَا أَيُّكُمْ يَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَسْأَلَهُ: أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟ فَلَمْ يَقُمْ مِنَّا أَحَدٌ، " فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلاً فَجَمَعَنَا، فَقَرَأَ عَلَيْنَا هَذِهِ السُّورَةَ، يَعْنِي سُورَةَ الصَّفِّ كُلَّهَا ولفظ ابن أبي حاتم عن عبد الله بن سلام؛ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالُوا: لَوْ أَرْسَلْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَسْأَلُهُ عَنْ أَحَبِّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ ﷻ؛ فَلَمْ يَذْهَبْ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنَّا وَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، قَالَ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُولَئِكَ النَّفْرَ رَجُلاً رَجُلاً حَتَّى جَمَعَهُمْ، وَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ السُّورَةُ: الصَّفِّ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلامٍ: فَقَرَأَهَا عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كُلَّهَا [2].

فأصبح هذا إخبار من الله تعالى بمحبته لعباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجهين لأعداء الله في حَوْمَةِ الْوَغَى، يقاتلون في سبيل الله مَنْ كَفَرَ بالله، لتكون كلمة الله هي العليا، وَدِينُهُ هو الظاهر العالي على سائر الأديان، وقوله تعالى: {كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ} [الصف: ٤]، أي: مُلْتَصِقٌ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، مِنَ الصَّفِّ فِي الْقِتَالِ، وَقَالَ قَتَادَةُ: كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ، أَلَمْ تَرَ إِلَى صَاحِبِ الْبُنْيَانِ، كَيْفَ لاَ يُحِبُّ أَنْ يَخْتَلِفَ بُنْيَانُهُ؟

(١) أ. هـ محاسن التأويل للقاسمي: (١١٥/٩).
(٢) أخرجه أحمد (٢٣٢٧٦)، وأبو يعلى (٧٤٩٧)، وابن حبان (٤٥٩٤)، والدارمي (٢٠٠/٢).

فَكَذَلِكَ اللهُ ﷻ لاَ يَخْتَلِفُ أَمْرُهُ، وَإِنَّ اللهَ صَفَّ الْمُؤْمِنِينَ فِي قِتَالِهِمْ وَصَفَّهُمْ فِي صَلاَتِهِمْ، فَعَلَيْكُمْ بِأَمْرِ اللهِ، فَإِنَّهُ عِصْمَةٌ لِمَنْ أَخَذَ بِهِ [1].

وقد حث الإسلام على الاجتماع ووحدة الصف في الصلوات، وعدم الانفراد فيها، وَرَغَّبَ في صلاة الجماعة وجعلها تَعْدِلُ خَمْسًا وعشرين صلاة من صلاة المنفرد، فقد جاء في سنن أبي داود، والحاكم من حديث أبي سعيد ﷺ أنه قال: «الصَّلَاةُ فِي جَمَاعَةٍ تَعْدِلُ خَمْسًا وَعِشْرِينَ صَلَاةً، فَإِذَا صَلَّاهَا فِي فَلَاةٍ، فَأَتَمَّ رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا بَلَغَتْ خَمْسِينَ صَلَاةً» [2].

وكما حَثَّ رسول الله ﷺ على صلاة الجماعة وَرَغَّبَ فيها، ونَفَّرَ من صلاة المنفردِ في المسجدِ وَكَرِهَ فاعلها.

وطلب من صاحبها إعادتها، لأنه شَذَّ عن الجماعة وخالف حديث رسول الله ﷺ الذي يحث على الجماعة وَيَحُضُّ عليها، فقد جاء في مسلم، والأربعة، أي: سنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ، فَلَا صَلَاةَ إِلَّا الْمَكْتُوبَةُ» [3].

لذلك حرص الإسلام على الْجَمْعِ والاجتماعِ في صلاة الجمعة، لأنها تجب على كل ذكرٍ مسلمٍ، مكلفَ، حُرٌّ، لا عذر له، لقوله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩} [الجمعة: ٩].

---

(١) صحيح تفسير ابن كثير، (٤/٤٣٦)، والحديث إسناده حسن: الطبري (٣٤٠٥٠).

(٢) صحيح الترغيب برقم: (٤١٠)، وصحيح السنن برقم: (٥٦٩)، وصحيح الجامع برقم (٣٨٧١).

(٣) الإرواء برقم: (٤٩٧)، وصحيح أبي داود برقم: (١١٥)، والروض برقم: (١٠٤٠)، ومختصر مسلم برقم: (٢٦٣)، وصحيح الجامع برقم: (٣٧١).

وروى ابن ماجة عن جابر قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْكُمُ الْجُمُعَةَ فِي يَوْمِي هَذَا، فِي شَهْرِي هَذَا، فِي عَامِي هَذَا، فَمَنْ تَرَكَهَا فِي حَيَاتِي، أَوْ بَعْدِي، وَلَهُ إِمَامٌ عَادِلٌ أَوْ جَائِرٌ اسْتِخْفَافًا بِهَا، وَ جُحُودًا بِهَا، فَلا جَمَعَ اللهُ شَمْلَهُ، وَلا بَارَكَ اللهُ فِي أَمْرِهِ» (١).

وروى أبو داود عن طارق بن شهاب مرفوعًا: «الْجُمْعَةُ حَقٌّ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إِلاَّ أَرْبَعَةَ: عَبْدٌ مَمْلُوكٌ، أَوْ امْرَأَةٌ، أَوْ صَبِيٌّ، أَوْ مَرِيضٌ» (٢).

(وكذا على كل مسافر لا يباح له القصر) كسفر المعصية، وما دون المسافة فتلزمه بغيره.

(وعلى مقيم خارج البلد، إذا كان بينهما وبين الجمعة وقت فعلها فرسخ فأقل) لقوله ﷺ: «الْجُمْعَةُ عَلَى مَنْ سَمِعَ النِّدَاءَ» (٣).

والفرسخ: مقياس قديم من مقاييس الطول يُقَدَّرُ بثلاثة أميال،

---

(١) أخرجه ابن ماجة (١٠٨١) والعقيلي في الضعفاء (٢٢٠) وابن عدي في الكامل (٢١٥-٢١٦)، والبيهقي (٩٠/٢ و ١٧١)، والواحدي في تفسيره (٢/١٤٥/٤)، وذكره الحافظ في التلخيص (١٣٢) وهو معلول، فقد أخرجه الباغندي في مسند عمر ص: (١٢)، وأبو طاهر الأنباري في المشيخة (ق ١/١٦٤)، والضياء المقدسي في المختارة (٢/١٠٣/١٠)، وأورده الضياء، (١/١٠٧/١٠) وعبد بن حميد المنتخب (ق ٢/١٢٤) وابن عساكر (٢/٢٢٩/١٧) وله شاهد عن أبي سعيد الخدري، وأخرجه الطبراني في الأوسط (١/٤٨/١ و ١/٣١-٣٢)، والهيثمي في المجمع (١٧٠/٢)، وأبو يعلى (١/١٠٧) وابن أبي حاتم في العلل (١٢٨/٢-١٢٩).

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٦٧)، والزيلعي (١٩٩/٢) وفي التلخيص (١٣٧)، والحاكم (٢٨٨/١)، والدارقطني (١٦٤)، والبيهقي (١٨٣/٣)، والضياء المقدسي في (المختارة) (ق ١/٢١).

(٣) أخرجه أبو داود (١٠٥٦)، والبيهقي (١٧٣/٣)، وابن الجوزي (١/١٥٧/١)، والدارقطني (١٦٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٠٤/٧)، والخطيب في الموضح (٦-٧)، وله شاهد أخرجه الدارقطني، وعنه ابن الجوزي في الفوائد المنتقاة (٢/٩١/٤)، وابن أبي شيبة (١/٢٠٥/١) والحافظ في التلخيص (ص: ١٣٧)، وفي الفتح (٢٢٠/٢).

والميل قَدْ قُدِّرَ قديمًا بأربعة آلاف ذراع، وهو بَرِّي، وبحري، فالبرِّي يُقَدَّرُ الآنَ بما يساوي ١٦٠٩ من الأمتار، والبحري بما يساوي ١٨٥٢ من الأمتار [١] أ.هـ، ولم يكن اعتبار السماع بنفسه، فاعتبر بمظنته، والموضع الذي يسمع منه النداء في الغالب إذا كان المؤذن صيتًا بموضعٍ عالٍ، والرياح ساكنة، والأصوات هادئة، والعوارض منتفية فرسخ، فاعتبرناه به، **قاله في الكافي.**

ولا تجب على من يباح له (الْقَصْرُ)، لأنه ﷺ سافر هو وأصحابه في الحج، وغيره، فلم يصلِّ أَحَدٌ منهم الجمعة فيه، مع اجتماع الخلق الكثير [٢] أهـ.

وَصَلاَةُ الْعِيدَيْنِ: شروطها كالجمعة، لأنها صلاة عيد، فأشبهت الجمعة. **قاله الكافي** (ما عدا الخطبتين) فإنها في العيد سُنَّةٌ، **لقول عبد الله بن السائب:** شهدت العيد مع النبي ﷺ، فلما قضى الصلاة قال: «إِنَّا نَخْطُبُ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَجْلِسَ لِلْخُطْبَةِ فَلْيَجْلِسْ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَذْهَبَ فَلْيَذْهَبْ» [٣].

وأحكام خطبتي العيدين، كخطبتي الجمعة، وَيُسَنُّ التكبيرُ المطلقُ، أي: الذي لم يقيد بأدبار الصلوات، وَيُسَنُّ أيضًا الْجَهْرَ به في لَيْلَتَيْ العيدين إلى فراغ الخطبة، لقوله تعالى: { لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ } [البقرة: ١٨٥].

---

(١) المعجم الوجيز، ص: (٥٩٧).
(٢) منار السبيل على مذهب الإمام أحمد بن حنبل: (١/١٣٥).
(٣) أخرجه أبو داود (١١٥٥)، والنسائي (١/٢٣٣)، وابن ماجة (١٢٩٠)، وابن الجارود في المنتقى (١٣٩)، والدارقطني (١٨٢)، والحاكم (١/٢٩٥)، والبيهقي (٣/٣٠١)، وأخرجه السلفي في الأحاديث العيدية (ق١٣٣-١٤٠)، وأبو القاسم في تحفة عيد الفطر (ق١٩٨/١-٢).

وعن علي ﷺ: (أَنَّهُ كَانَ يُكَبِّرُ حَتَّى يَسْمَعُ أَهْلَ الطَّرِيقِ) [1].

وصفة التكبير لحديث جابر ﷺ أنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، إِذَا صَلَّى الصُّبْحَ مِنْ غَدَاةِ عَرَفَةَ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَيَقُولُ: عَلَى مَكَانِكُمْ، وَيَقُولُ: اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، وَلله الْحَمْدُ» [2].

لتجتمع الحناجر من بعد صلاة صبح أول يوم من شوال فتطلق أصوات التكبير من المآذن مدوية في يومٍ بهيجٍ تعلوا فيه أصوات المسلمين على قلب رجل واحد يطلقون عبارات الله أكبر، حتى يستقبل الإمام الناس ليصلوا صلاة العيد، وبعد الصلاة والاستماع للخطبة إذا أراد أن يرجع من مكانٍ غير المكان الذي ذهب منه ويعلو، صوته بالتكبير.

وفي الحج اجتمع المسلمون على شعائر واحدة، ومناسك واحدة، وقد أمرهم رسول الله ﷺ برفع أصواتهم بالتلبية، فقد روى الإمام مالك وغيره عن نافع عن عبد الله بن عمر، أَنَّ تَلْبِيَةَ رَسُولِ الله ﷺ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لاَ شَرِيكَ لَكَ [3].

---

(١) رُوِيَ ابن أبي شيبة عن رجل من المسلمين (٢/١-٢)، والدارقطني (١٧٩) والغرياني (٢/١٢٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/٢/٢)، والبيهقي (٣١٥/٣)، والمحاملي (١/١٤٣/٢)، وفي رواية لابن أبي شيبة (١/٣/٢).

(٣) رواه الإمام مالك في الموطأ (٢٠) كتاب الحج (٩) باب العمل في الإهلال، حديث رقم: (٣٠/٧٣٨)، ورواه البخاري في (٢٥) كتاب الحج (٢٦) باب التلبية حديث رقم: (١٥٤٩)، ومسلم في (١٥) كتاب الحج (٣) باب التلبية وصفتها ووقتها. حديث رقم: (١١٨٤/١٩)، وأبو داود في (٥) كتاب الحج (٢٧) باب كيف التلبية، حديث رقم: (١٨١٢)، ورواه الترمذي في (٧) كتاب الحج (١٣) باب ما جاء في التلبية، حديث

ورواه أيضًا من حديث خلاد بن السَّائب الأنصاريِّ عن أبيه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَمَرَنِي أَنْ آمُرَ أَصْحَابِي، أَوْ مَنْ مَعِيَ أَنْ يَرْفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّلْبِيَةِ، أَوْ بِالإِهْلاَلِ يُرِيدُ أَحَدَهُمَا» [1].

قال الإمام البغويُّ رحمه الله: رَفْعُ الصوت بالإهلال مشروعٌ في المساجد وغيرها.

قال الشافعيُّ: كان السَّلَفُ يستحبونَ التلبية عند اصطدام الرفاق، وعند الإشراف والهبوط، وخلف الصلوات، وفي استقبال الليل والنهار وبالأسحار، ونحبُّه على كل حال [2] أهـ.

ويجتمع المسلمون جميعًا على يومٍ واحدٍ وهو يوم التاسع من ذي الحجة، وهو يوم عرفة، وعلى أذانٍ واحدٍ، ورؤية هلال رمضان ليبدأ الصوم في يوم واحد، وينتهي الصوم في يوم واحد عند رؤية هلال شوال ليصبح عيد الفطر في يوم واحد في جميع بلاد المسلمين، وكذلك عيد الأضحى، ونهى الإسلام عن الفرقة والافتراق، والاختلاف حيث جاء في سياقه تعالى: {وَلَا تَفَرَّقُوا} [آل عمران: ١٠٣].

رقم (٨٢٥)، والدارمي في كتاب المناسك، باب في التلبية حديث رقم: (٣٤/٢)، وابن ماجة في (٢٥) كتاب المناسك، حديث رقم: (٢٩١٨)، ورواه النسائي في كتاب مناسك الحج عن مالك برقم: (١٦٠/٥)، ورواه الإمام الشافعي عن مالك في المسند حديث رقم: (٥٦٧).

(١) رواه مالك في الموطأ في (٢٠) كتاب الحج (١٠) باب رفع الصوت بالإهلال، حديث رقم (٣٦/٧٤٤)، ورواه أبو داود في (٥) كتاب الحج (٢٧) باب كيف التلبية، حديث رقم: (١٨١٤)، والنسائي في كتاب مناسك الحج، باب رفع الصوت بالإهلال (١٦٢/٥)، والترمذي في (٧) كتاب الحج (١٥) باب ما جاء في رفع الصوت بالتلبية، حديث رقم: (٨٢٩)، وابن ماجة في (٢٥) كتاب المناسك (١٦) باب رفع الصوت بالتلبية، حديث رقم: (٢٩٢٢)، ورواه الإمام الشافعي في المسند عن مالك، حديث رقم: (٥٧١).

(٢) شرح السنة للبغوي: (٢٦٣/٤).

{ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا } [الروم: ٣٢].

{ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ } [آل عمران: ١٠٥].

{ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [هود: ١١٨ - ١١٩].

ولذلك نجد على الساحة السياسية أكثر من خمسين حزبًا سياسيًا، لكنهم مختلفي الوجهة والهدف، مختلفي الاتحاد في الرَّأي، وإن ظهروا أمام الناس على أنهم متحدين، لكنهم عند المواقف الجادَّةِ تجدهم اختلفوا وظهر عوارهم، وهكذا في الطرق الصوفية، وكذا في الإسلام السياسي، لذا حث رسول الله ﷺ على الاجتماع ونهى عن الاختلاف والفرقة، فقد جاء في سنن أبي داود من حديث أبي ثعلبة الخشني أنه قال: كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلُوا مَنْزِلًا، تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ، إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ الشَّيْطَانِ**» فَلَمْ يَنْزِلُوا بَعْدَ ذَلِكَ مَنْزِلاً إِلاَّ انْضَمَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ حَتَّى يُقَالُ لَوْ بُسِطَ عَلَيْهِمْ ثَوْبٌ لَعَمَّهُمْ [(١)].

فقد كان رسول الله ﷺ، لم يغفل عن أصحابه حتى في السفر، بل كان يراقبهم عن كَثَبْ، وكان يحرص على اجتماعهم دائمًا، وكان ينهي أن يسافر الرجل وحده، فقد روى البخاري، والترمذي، وابن خزيمة من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ : «لَوْ أَنَّ

(١) صحيح أبي داود برقم: (٢٢٨٨)، وسنن أبي داود (عون المعبود) برقم: (٧/٢٩٢/٢٦١١).

النَّاسَ يَعْلَمُونَ مِنَ الْوِحْدَةِ مَا أَعْلَمُ مَا سَارَ رَاكِبٌ بِلَيْلٍ وَحْدَهُ» [١].

ولذلك فقد شبه رسول الله ﷺ المنفرد بالشيطان، فقد جاء في سنن أبي داود، والترمذي من حديث عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيه، عَنْ جَدِّهِ، أن رسول الله ﷺ قال: «الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَلاَثَةُ رَكْبٌ» [٢].

قال المظهر: يعني مَشْيِ الْوَاحِدِ منفردًا مَنْهِيٌّ عنه، وكذلك مشى الاثنين، ومن ارتكب مَنْهِيًّا فقد أطاع الشيطان، ومن أطاعه؛ فكأنه هو، ولذا أطلق ﷺ اسمه عليه، وفي شرح السنة: معنى الحديث فيما رُوِيَ عن سعيد بن المسيب مُرْسَلاً: الشيطان يَهِمُّ بالواحد والاثنين، فإذا كانوا ثلاثة؛ لم يَهِمَّ بهم، وقال الخطابي: معناه التفرد، والذهاب في الأرْض، من فعل الشيطان، وهو شيء يحمله عليه الشيطان ويدعوه إليه، وكذلك الاثنان، فإذا صاروا ثلاثة فهو رَكْبٌ، أي: جَمَاعَةٌ وَصَحْبٌ، قال: والمنفرد في السفر إن مات لم يكن بحضرته من يقوم بغسله ودفنه وتجهيزه، ولا عنده من يوصى إليه في ماله ويحمل تركته إلى أهله ويورد خبره إليهم، ولا معه من سفره من يعينه على الحمولة، فإذا كانوا ثلاثة؛ تعاونوا فيما بينهم وتناوبوا المهنة والحراسة، وصلوا الجماعة، وأحرزوا الحظ فيها [٣] أهـ.

وروى الحاكم على شرط مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول

(١) رواه البخاري (٢٩٩٨)، والترمذي (١٦٧٣)، وابن خزيمة (٢٥٦٩)، وابن ماجة (٣٧٦٨).
(٢) حديث حسن: أخرجه الترمذي برقم: (١٦٧٤)، وأخرجه أبو داود برقم: (٢٦٠٧).
(٣) تحفة الأحوذي بشرح الترمذي: (٦١/٥).

الله ﷺ قال: «الْوَاحِدُ شَيْطَانٌ، وَالِاثْنَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ» [(١)].

وكان رسول الله ﷺ إذا رأى حِلَقًا في المسجد يقول: «مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينْ؟» [(٢)].

أي: متفرقين فِرَقًا، ومتحلقين حِلَقًا، وهذا يَدُلُّ على الفرقة والاختلاف، لأن الحلقة الواحدة تَدُلُّ على الرأس الواحد، والتفكير الواحدِ، والعمل الواحدِ، ليصبح هدفها الإصلاح ورجَاحةِ العقل، لا الفرقةِ واختلاف الهدفِ وإحداث الفتن، (وَكَأَنَّهُ يُحِبُّ ٱلْجَمَاعَةِ) [(٣)].

كما جاء في قوله تعالى: {كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً} [البقرة: ٢١٣].

أي: وجدوا أمة واحدة تتحد مقاصدها ومطالبها ووجهتها لتصلح ولا تفسد، وتحسن ولا تُسِيء، وتعدل ولا تظلم؛ أي: ما وجدوا إلا ليكونوا كذلك، كما قال في قوله تعالى: {وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟} [يونس: ١٩].

أي: انحرفوا عن الاتحاد والاتفاق، الذي يثمر كل خير لهم وسعادة، إلى الاختلاف والشقاق المستتبع الفساد وهلاك الحرث والنسل، ولما كانوا لم يخلقوا سُدَىً من الله عليهم بما يبصرهم سبيل الرشاد في الاتحاد على الحق من بعثه الأنبياء، وما نزل معهم من الكتاب الفصل، كما أشارت تتمة الآية، وفي صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ

(١) صحيح: رواه الحاكم: (١٠٢/٢).
(٢) مسلم (١/٣٢٢/٤٣٠)، وسنن أبو داود (عون المعبود) (١٣/١٧٢/٤٨٠٢).
(٣) صحيح أبي داود (٤٠٣٩)، وسنن أبي داود (عون المعبود)، (٣س ١٣/١٧٢/٤٨٠).

وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [1] أهـ.

قال تعالى: {وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ} [آل عمران: ١٠٣].

{وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾} [آل عمران: ١٠٥].

فالاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه هو سبيل النجاة وسبيل الفلاح، والاختلاف والفرقة هو سبيل الهلاك والخزي في الدنيا والآخرة، لأنه ما وقع الهرج والمرج، وعدم انتظام أمر الدين والدنيا التي آلتْ إلى الفساد والتفرق إلا منهما، أي: الفرقة والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قَيْدَ شِبْرٍ لَمْ يَرَ بَحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ» [2].

ولذلك حرص الإسلام على لَمِّ الشَّمْلِ، ووحدة الصَّفِّ، لأن في الاتحاد قُوَّةٌ، وفي التفرقِ ضَعْفٌ، وَيَدٌ على يَدٍ قُوَّةٌ، وقرشٌ على قرشٍ ثروةٌ، وحَجَرٌ على حجرٍ بِنَاءٌ، وإن النصر مع الجماعة والاتحاد، لأن يد الله مع الجماعة، كما روى الترمذي من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ أن رسول الله ﷺ قال: «يَدُ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ» [3].

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي: (١٣٦/٢)، والحديث أخرجه مسلم (٧٧٠)، وأبو داود (٧٦٧)، والترمذي (٣٤٢٠)، والنسائي في (المجتبى) (١٦٢٤)، وفي (الكبرى) (١٣٢٢)، وابن ماجه (١٣٥٧)، وأحمد (٢٤٦٩٩)، وابن خزيمة (١١٥٣)، وابن حبان (٢٦٠٠)، والبيهقي (٤٧٧٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٨٤٩)، وأحمد (٢٦٧٩)، وابن أبي شيبة (٥٩٩/٨)، والدارمي (٢٤٢٤)، وأبو يعلى (٢٣٤٧)، والطبراني في (الكبير) (١٢٧٥٩)، والبيهقي في (الكبرى) (١٧٠٨٣)، وفي (شعب الإيمان) (٧٤٩٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٦٦)، والبزار (٢٢٤٣)، من حديث ابن عباس، والحديث صحيح بشواهده.

وروى أبو داود، والترمذي، وغيرهما من حديث ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ، وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمِائَةٍ، وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلاَفٍ، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ»(١).

قوله ﷺ: «خير الصحابة أربعة»، أي: ما زاد عن ثلاثة، قال أبو حامد: المسافر لا يخلو عن رجل يحتاج إلى حفظه، وعن حاجة يحتاج التردد فيها، ولو كانوا ثلاثة؛ لكان المتردد واحدًا، فيبقى بلا رفيق، فلا يخلو عن خطر وضيق قلب، لفقد الأنيس، ولو تردد اثنان؛ كان الحافظ وحده، قال المظهر: يعني الرفقاء إذا كانوا أربعة خير من أن يكونوا ثلاثة؛ لأنهم إذا كانوا ثلاثة، ومرض أحدهم، وأراد أن يجعل رفيقيه وَصِيِّ نفسه، لم يكن هناك من يشهد بإمضائه إلا واحد، فلا يكفي، ولو كانوا أربعة، كفى شهادة اثنين، ولأن الجمع إذا كانوا أكثر يكون معاونة بعضهم بعضًا أَتَمُّ، وفضل صلاة الجماعة أيضًا أكثر، فخمسة خير من أربعة، وكذا كل جماعة خير ممن هو أقل منهم لا ممن فوقهم، قوله ﷺ: «وخير السرايا أربعمائة» والسرايا جمع سرية وهي قطعة من الجيش، قال في النهاية: السرية هي طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربع مائة تبعث إلى العدو، وجمعها السرايا، سُمُّوا بذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم من الشيء النفيس.

وقوله: «وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا يغلب»، أي: لا يصير

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٦١١)، والترمذي (١٥٥٥)، وابن خزيمة في صحيحه (٢٥٣٨)، وابن حبان في صحيحه (٤٧١٧)، وَخَرَّجَهُ الألباني في صحيح أبي داود (٢٢٧٥).

مغلوبًا (اثنا عشر ألفا) قال الطيبي: جميع قرائن الحديث دائرة على الأربع واثنا عشر ضعفا، ولعل الإشارة بذلك تدعو إلى الشدة والقوة واشتداد ظهرانيهم تشبيهًا بأركان البناء، وقوله: «من قلة» معناه: أنهم صاروا مغلوبين لم يكن للقلة، بل لأمر آخر سواها، وإنما لم يكونوا قليلين، والأعداء مما لا يُعَدُّ ولا يحصى، فعن هذه الأثلاث: جيش قوبل بالميمنة، أو الميسرة، أو القلب فليكفها، ولأن الجيش الكثير المقاتل منهم بعضهم، وهؤلاء كلهم مقاتلون، ومن ذلك قول بعض الصحابة يوم حنين، وكانوا اثنى عشر ألفا، لن نغلب اليوم من قلة، وإنما غلبوا من إعجابٍ منهم، كما جاء في قوله تعالى: {وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا} [التوبة: ٢٥].

وكان عشرة آلاف من المدينة، وألفان من مسلمي فتح مكة [١] أهـ.

ولما اختبر حَكِيمٌ أولاده، وأراد أن يعلمهم درسًا عمليًّا أمام نَاظِرَيْه، أحضر حزمة حطب، وأعطى الحزمة لكل واحدٍ منهما وطَلب منه أن يَكْسِرَ هذه الحزمة، فأخذ الواحد بعد الواحد هذه الحزمة على أن يكسرها فلم يقدر، وصعب على كل واحدٍ منهم كسرها، فلما رأى الوالد عجزهم عن ذلك قام بتفريق الحزمة إلى أعوادٍ، وقال لكل واحدٍ منهم اكسر ما في يدك، فأصبح في تلك الحالة كَسْرُ ما في يَدِ الأولادِ سهلٌ يسيرٌ، لأن حزمة الحطب تفرقت وضعفت بعد قوةٍ ثم أنشد الحكيم قائلاً:

كُونُوا جَمِيعًا يَا بَنِيَّ إِذَا اعْتَدَى ::: خَطْبٌ وَلاَ تَفَرَّقُوا آحَادَا
تَأْبَى الْعَصِيَّ إِذَا اَجْتَمعْنَ تَكَسُّرًا ::: وَإِذَا افْتَرقْنَ تَكَسَّرتْ أَعْوَادَا

* * *

(١) تحفة الأحوذي بشرح الترمذي: (٤/٥٠٣-٥٠٤).

وَطَوْقُ النَّجَاةِ لِلأُمَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ فِي تِلْكَ الآوِنَةِ هُوَ التَّمَسُّكُ بِخُلُقِ الْحَيَاءِ

والذي أراه أنه قد اضمحل، أو كاد أن ينتهي من هذه الأمة التي كان صفتها، وَسَمْتُهَا، لأنها أخذته من صفة الله ورسوله، والآن قد تجرأت بعض النفوس على تلك الصفة، وأحلت مكان الحياء السَّفالة والتَّبجُّح، وانطلقوا بألسنتهم المسمومة يهتكون أعراض الناس، بلا حياءٍ أو خجل، فيقذفون المحصنات وهم لا يدرون ما يُفعل بهم غدًا.

يَاهَتِكًا سِتْرَ الرِّجَالِ وَقَاطِعًا ::: سُبُلَ الْمَوَدَّةِ عِشْتَ غَيْرَ مُكَرَّمِ
إِنْ كُنْتَ حُرًّا مِنْ سُلاَلَةِ طَاهِرٍ ::: مَا كُنْتَ هَتَّاكًا لِحُرْمَةَ مُسْلِمِ

والذين يرمون الناس باتهاماتٍ جُزَافًا، وهم ما يطلقون عليهم باللغة الدارجة (رَمْي الجتت، أو تلقيح الجتت) على خلق الله، وللأسف الشديد أن ذلك يظهر من بعض المنتقبات اللاتي يتشدقن بكلماتٍ جارحاتٍ دون حياءٍ أو خجلٍ، فقد كنت في مكتب الشئون القانونية بمديرية التربية والتعليم، وجاء رجلٌ ترتعد فرائصه من إحدى الموظفات في مكتب التعليم الابتدائي، وللأسف الشديد منتقبة، وقال وكأن الكلام يقف في حلقه من شدة الخوف، لأن هذه السيدة ادَّعت عليه أنه (ذهب وراءها إلى دورة المياه) وأنها أتت بأربعة شهودٍ على شاكلتها، وعندما نطق اسمها عرفتها، وقلت له: هذه السيدة (ترمي جتتها على الناس) وتهوى تلفيق التهم، قم بتحرير مذكرة ضدها وأنا أشهد معك، لأنها بتلك الطريقة قامت بنقل الكثير في حقل التعليم، وخلال أيام علمت أنها نقلت من المديرية إلى الإدارة التعليمية، ولقد سبق لي أن كتبت ضدها عدة شكاوى

وتصديت لجبروتها دون هوادة، أو خوف، فقد ذهبت أنا وبعض الزملاء في حقل التعليم إلى محافظ كفر الشيخ السابق وأعلمته أمرها، فاتصل بوكيل الوزارة السابق على الفور وأنا جالس بين يديه، فوافق كلامه بما قلت، فقال: وماذا فعل مدير الإدارة، قلت له: (مدير الإدارة، لا بيحل ولا بيربط)، قال: هذا مديرك أقسمت له بالله: أنه لاَ يَحِلُّ وَلاَ يَرْبُطْ، أي: يَدَيْهِ مُرْتَعِشَةً، فقال: أعطني فرصةً لمدة يومين، وعندما تحقق من صدق قولي من جهات أخرى مسئولة، قام على الفور بنقلها إلى مديرة التربية والعليم، هذه السيدة تجرأت على الرجال والنساء، لأنها لم تَرَ من يصدها عن ذلك، فأصبحت كالغول لا يصدَّها صَادٌ، ولا يردعها قول الحق، حتى أصبح شهود العيان إذا طُلِبُوا للشهادة ترتعد فرائصهم خوفًا من لسانها، وإذا ذكرتهم بقول الله تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ} [البقرة: ٢٨٣].

يقولون: (أنا مالي، يا عم ابعدني عن المشاكل) فهذه السيدة ومن على شاكلتها قد قل ماء الحياء في وجهها، كما قال الشاعر:

إِذَا قَلَّ مَاءَ الْوَجْهِ قَلَّ حَيَاؤُهُ ::: فَلاَ خَيْرَ فِي وَجْهٍ إِذَا قَلَّ مَاؤُهُ
حَيَاءَكَ فَاحْفَظْهُ عَلَيْكَ، فَإِنَّمَا ::: يَدُلُّ عَلى وَجَهِ الكَرِيمِ حَيَاؤُهُ

فإذا نُزِعَ الحياءُ من الوجه، فلا ترى من المرء إلا جمودٌ في الضمير وبذاءَة في الأقوال بلسانٍ يتسلط على العباد بهتك الأعراض وهدم البيوت، واغتصاب الحقوق من النفوس البريئة الطاهرة التي لا حول لها ولا قوة غير أنها في مجتمع يخشى ظلم اللسان وتسلطه على الأعراض في مقتل، لذا أقول لكل من تُسَوِّلُ لهُ نفسه أن يمتنع عن الشهادة بقول الحق والضرب على يد الظالم (لا تخف، فإن الباطل أجوف، كالبالونة المعبأة بالهواء، إذا تسرب الهواء منها أصبحت

بلا جدوى) حالها كحال الظالم المتجبر، فإذا أخذ الناس على يديه ذُلَّ وانقاد كما تنقاد الناقة بخطامها، فقد أخرج الطبراني من حديث ابن عباسٍ مرفوعًا أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَعَانَ ظَالِمًا بِبَاطِلٍ لِيُدْحِضَ بِبَاطِلِهِ حَقًّا، فَقَدْ بُرِيءَ مِنْ ذِمَّةِ اللهِ ﷻ وَذِمَّةَ رَسُولِه» (١).

لذا أهيب بكل نفس مسلمة كانت على شريعة محمد ﷺ الغرَّاء أن لا تترك الحق، بل تقف بجانبه وَتُعَضِّدَهُ، فإذا لم تُعِنْ على الحق، فإنك في تلك الحالة تُعِنْ على الباطل ليتبرأ الله ورسوله منك في يوم تشخص فيه الأبصار، والأمثال على ذلك كثيرة، وليس ذلك في النساء فقط، بل في الرجال أيضًا، فهيا نتذكر ما كان في أيام الزمن الجميل لعلها تُشْفِي الجراح، وتكون لنا درسًا ونبراسًا:

جاءت امرأة إلى عمر ﷺ فقالت: يا أمير المؤمنين، إن زوجي قد كَثُرَ شَرُّهُ، وَقَلَّ خَيْرُهُ، قال لها عمر: وَمَنْ زوجك؟

قالت: أبو سلمة.

قال: فعرفهُ عُمَرُ ﷺ فإذا هو رجلٌ لَهُ صُحْبَةٌ.

فقال لها عمر: ما نعلم من زوجك إلا خيرًا، ثم قال لرجل عنده: ما تقول أنت؟

فقال: يا أمير المؤمنين، لا نعلم إلا ذلك، فَأَرْسَلَ إلى زوجها وأمرها فقعدت خلف ظهره، فلم يلبث أن جاء الرجل مع زوجها،

(١) أخرجه الطبراني في (الكبير) عن ابن عباس مرفوعًا، وأخرجه الحاكم برقم: (١٠٠/٤)، وأخرجه الخطيب برقم: (٧٦١٦)، عن ابن عباس مرفوعًا، وأخرجه الطبراني في (الصغير) برقم: (٤٤)، وجاء في (المجمع) برقم: (٢١٢/٥)، وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة برقم: (١٠٢١).

فقال له عمر: أتعرف هذه؟

قال: ومن هذه يا أمير المؤمنين؟

قال: هذه امرأتك.

قال: وتقول ماذا؟

قال: تزعم أنه كَثُرَ شَرُّكَ، وَقَلَّ خَيْرُك.

قال: بئسما قالت يا أمير المؤمنين، والله إنها لأكثر نسائها كُسْوَةً، وأكثرها رَفَاهِيَّةَ بَيْتٍ، ولكن بَعْلَهَا بَكِّيءْ، (أي: أن زوجها لا يستطيع الجماع).

فقال: ما تقولين؟

قالت: صدق، فأخذ الدِّرَّةَ، فقام إليها فتناولها وهو يقول: يَا عَدُوَّةَ نفسك، أفنيت شبابه، وأكلت ماله، ثم أنشأت تَشِنِّينَ عليه ما ليس فيه.

فقالت: يا أمير المؤمنين، أقلني في هذه المرة، والله لا تراني في هذا المقعد أبدًا، فدعا بأثوابٍ ثلاثة، فقال لها: اتقي الله وأحسني صحبة هذا الشيخ، ثم أقبل عليه فقال: لا يمنعك ما رأيتني صنعت بها أن تحسن صحبتها.

قال: أفعل يا أمير المؤمنين، قال الراوي: كأني أنظر إليها أخذت الأبواب منطلقة، ثم إني سمعت عمر ﷺ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خير أمتي القرن الذي أنا فيه، ثم الذين يلونه، ثم الذين يلونه، ثم يجيء قوم تسبق شهادتهم أيمانهم، يشهدون قبل أن يستشهدوا لهم في أسواقهم**»[1].

وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «خَيْرُ أُمَّتِي

(١) الخبر جاء في مجمع الزوائد برقم: (٩١/١٠).

الْقَرْنُ الَّذِي بُعْثُ فِيهِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَخْلُفُ قَوْمٌ يُحِبُّونَ السَّمَانَةَ، يَشْهَدُونَ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدُوا» [1].

انظروا إلى حياء هذه المرأة التي قالت عن زوجها ما قالت: في حين أن ما قالته عنه به جزء من الحقيقة، أنه بَكِّيءٌ، ولكن عندما ذَكَّرَهَا عمر ﷺ بواجبها نحو زوجها أخذت الأبواب منطلقةً مُسْرِعةً من شِدَّةِ حياءها، لأن الوجه المصون بالحياء، كالجوهر المكنون في الوعاء، أي: كالجوهرة التي صانها صاحبها من يَدِ العابثين، ولن يتزين المرء بزينة هي أبهى ولا أجمل من الحياء، لأن الحياء تَاجٌ على رؤوس أصحابها لا يتزين بها إلاَّ هم، كما أخرج الترمذي وغيره من حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ شَانَهُ، وَلاَ كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَ زَانَهُ» [2].

قوله ﷺ: «ما كان الفحش»، أي: ما اشتد قبحه من الكلام «إلا شانه»، أي: عَيَّبَهُ الْفُحْشُ، وقيل المراد بالفحش العنف، لما في رواية عبد بن حميد والضياء عن أنس أيضًا: «مَا كَانَ الرِّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ نُزِعَ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ»، وقوله ﷺ: «وما كان الحياء في شيء إلا زانه» أي: زَيَّنَهُ.

قال الطيبي: أي: لَوْ قُدِّرَ أن يكون الفحش، أو الحياء في جماد لزانه أو شانه، فكيف بالإنسان؟! لأن الفحش عدوان الجواب [3] أهـ.

(١) الروض النضير (٢٤٧)، والسلسلة الصحيحة (٦٩٩)، وصحيح الجامع برقم: (٣٣٠١).
(٢) أخرجه الترمذي (١٩٧٤) في البر والصلة، وابن ماجة (٤١٨٥)، وعبد الرزاق في (المصنف) (٢٠١٤٥)، والحديث صحيح.
(٣) أ. هـ تحفة الأحوذي بشرح الترمذي: (٣٨٦/٥).

ومنه قوله ﷺ: «يَاعَائِشَةُ! إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ، مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ» [١].

وقوله ﷺ: «يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَاحِشَ الْمُتَفَحِّشِ» [٢].

وقوله ﷺ: «يَا عَائِشَةُ! لاَ تَكُونِي فَاحِشَةً» [٣].

فالمؤمن إذا لم يَمْنَعْهُ إيمانه عن الفحش وبذاءة القول كالرجل العاري، بلا ثوبٍ يمنعه عن أعين الناس، لأن لباس الإيمان تقوى الله، وزينته حياء الوجه عن كل قبيح، لذا وجب علينا أن نتحلى بتلك الصفة التي هي من صفات الله جل وعلا ورسوله ﷺ، فقد أخرج الترمذي، وأبو داود من حديث سلمان ﷺ أن رسول الله قال: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ» [٤].

قال ابن القيم رحمه الله: وأما حياء الرَّبِّ تعالى من عبده، فذاك نوعٌ آخر، لا تدركهُ الأفهام، ولا تكيفهُ العقول، فإنه حياء كريمٍ، وبرٍ، وجودٍ، وجلالٍ، فإنه تبارك وتعالى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا، ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام [٥] أهـ.

(١) السلسلة الصحيحة برقم: (١٠٤٩)، وصحيح الجامع برقم: (٧٩٢٥-٣٠١٩)، والحديث رواه الترمذي عن عائشة ﷺ.

(٢) الإرواء برقم: (٢١٣٣)، وصحيح الجامع برقم: (٧٩٢٢-٣٠١٦)، والحديث رواه أبو داود عن عائشة ﷺ.

(٣) الإرواء برقم: (٢١٣٣)، وصحيح الجامع برقم: (٧٩٣٣-٣٠٢٦)، والحديث رواه مسلم عن عائشة ﷺ.

(٤) أخرجه أبو داود (٢٨/٢)، والترمذي (٥٥٦/٥)، وانظر صحيح الترمذي (١٧٩/٣)، و(صحيح ابن ماجه) (٣٣١/٢).

(٥) (مدارج السالكين) (٢٦١/٢)، وقد ورد في كتاب الحياء، خُلق الإسلام محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، ص: ٢١.

فالله ﷻ مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحيي من هتك العاصي، وفضيحته، وإحلال العقوبة به، فيستره بما يقيض له من أسباب الستر، ويعفو عنه، ويغفر له، ويتحبَّب إليه بالنعم، ويستحيي ممن يمد يديه إليه سائلاً متذللاً أن يردَّهما خاليتين خائبتين، ومعنى (يحب الحياء) أي: من اتصَّفَ به، **قال التوربشتي**: (وإنما كان الله يحب الحياء والستر، لأنهما خصلتان يفضيان به إلى التخلق بأخلاق الله) [1] أهـ.

أما عن حياء رسول الله ﷺ، فقد جاء في الحديث المتفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَشَدُّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ، عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ**» [2].

والخِدْر: جزء من مكان يُعَدُّ ناحية البيت يلقي عليه ستر، فتكون فيه الجارية البكر، والعذراء - إذا كانت متربية في سِتْرِهَا - تكون أَشَدُّ حَيَاءً لتسترها حتى عن النساء، بخلاف الداخلة الخارجة، والمراد بالحديث الحالة التي تعتريها عند دخول أحدٍ عليها فيه، لا التي تكون عليها حالة انفرادها واجتماعها بمثلها [3] أهـ.

والمقصود أنه ﷺ في حياءه الفطري المكتسب من طبيعته وإيمانه الذي جبله الله عليه أَشَدُّ من هذه البكر التي أرخى عليها هذا الخدرُ، أو السِّتْرُ.

أما آن لنا أن نتخلق بِخُلُقٍ يحبه الله ورسوله، أما آن لنا أن نستحيي من الله ورسوله عند اللقاء، ماذا نقول للرب تعالى وهو

(١) تحفة الأحوذي بشرح الترمذي: (٩/٥٤٤).
(٢) رواه البخاري (١٠/٤٣٤)، ومسلم برقم: (٢٣٢٠).
(٣) الحياء خلق الإسلام، محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، ص: ٢٤.

ناظرٌ إلينا ليسألنا عن الغش والغشاشين، ونحن قد زرعناهُ في قلوب النشءِ الصغار، حتى أصبح حقًّا مستباحًا لهم؟ أما آن لنا أن نسأل أنفسنا - ما ذنب المجتهد الذي أحبطناه بخصلةٍ ذميمةٍ ألا وهي الغش الذي به سلبنا واغتصبنا له حق المجتهدين؟ أما آن لنا أن نستحيي من عدم وفائنا بالكيل والميزان، وماذا نفعل مع قوله تعالى: {وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦} [المطففين: ١ - ٦].

أما آن لنا أن نستحيي من الله تعالى ونحن ننظر في أدبار النساء، وأعيننا تلاحقهم يُمْنَةً ويُسْرَةً، أين نحن من حياء موسى عليه السلام، وقوله لإحدى ابنتي شعيب وهي تدلهُ على الطريق للذهاب إلى أبيها، فقامت ريحٌ وصفت عن قعيصتها، أي: مؤخرتها، فقال لها: ارجعي خلفي واقذفي لي حجرًا أمامي ليَدُلَّني على الطريق، فأنا رجلٌ عَبْرانيٌّ لا أنظرُ في أدبار النساءِ.

أما آن لنا أن نستحيي من الله ونحن نحكم بأحكامٍ جائرةٍ، والمظلوم المكلوم قلقٌ المضاجِعِ، غَرِقُ المدامِعِ، حائرُ الفؤادِ من شدة الظلم، أو الجورِ، ألا تتعظ أيها القاضي الجائرُ من قول رسول الله ﷺ: «الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: اثْنَانِ فِي النَّارِ، وَوَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنَّةِ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَجَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ» [1].

(١) الإرواء برقم: (٢٦١٣)، وصحيح الجامع برقم: (٤٤٤٦)، والحديث روى في السنن الأربعة، والحاكم عن بريدة ﷺ.

أما آن لنا أن نستحيي من الله ونحن ننظر إلى المعاصي ليل نهار، ونحن نسبح في شاشات التلفازات نطلق النظرات المسمومة على الأفلام العاهرة التي تدعو إلى الرذيلة.

أما آن لنا أن نستحيي من الله ونحن قد فَرَّطْنا في الصلاة وتركناها وقد ابْيَضَّ الشَّعْرُ، وانْحَنَى الظَّهْرُ.

فَلاَ وَاللهِ مَا فِي الْعَيْنِ خَيْرٌ ::: وَلاَ الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ

يَعِيشُ الْمَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ ::: وَيَبْقَى الْعُودُ مَا بَقِيَ اللِّحَاءُ

* * *

وَطَوْقُ النَّجَاةِ أَيْضًا يَتَمَثَّلُ فِي صَلَاحِ الْقَلْبِ

وإدخال السرور عليه بذكر الله، فإذا غفل عن ذكر الله ذُكِّرَ، حتى لا يعلوه الصدأُ، أو الرَّانُ، لأن السيئة تمحوها الحسنة كما جاء في قوله تعالى: {وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤} [هود: ١١٤].

وقد روى عن ابن مسعود ﷺ، أَنَّ رَجُلاً جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أَقْصَى الْمَدِينَةِ، وَإِنِّي أَصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّهَا، وَأَنَا هَذَا فَاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: لَقَدْ سَتَرَكَ اللَّهُ تَعَالَى لَوْ سَتَرْتَ نَفْسَكَ، قَالَ: فَلَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا، فَقَامَ الرَّجُلُ، فَانْطَلَقَ فَأَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا فَدَعَاهُ، وَتَلَا عَلَيْهِ الآيَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا لَهُ خَاصَّةً؟، قَالَ: «بَلْ لِلنَّاسِ كَافَّةً»[1].

معنى قوله: (إني عالجت امرأة) أي: داعبتها وناولت منها ما يكون بين الرجل والمرأة غير أني ما جامعتها، (في أقصى المدينة) أي: أسفلها وأبعدها عن المسجد (ما دون أن أمسها) أي: أصبت منها ما يجاوز المس، أي: المجامعة (وأنا هذا) أي: أنا موجود وحاضر بين يديك ومنقاد لحكمك (فاقض فيَّ) أي: فاحكم في حقي (ما شئت)

(١) أخرجه البخاري (٥٠٣)، ومسلم (٢٧٦٣)، وأبو داود (٤٤٦٨)، والترمذي (٣١١٢)، والنسائي في (الكبرى) (٧٣٢٢) و(٧٣٢٤)، وابن ماجه (١٣٩٨)، وأحمد (٤٢٣٨)، وعبد الرزاق (١٣٨٢٩)، والبزار (١٦٢٦)، وأبو يعلى (٥٣٨٩)، وابن خزيمة (٣١٣)، وابن حبان (١٧٣٠)، والطبراني في (الكبير) (١٠٤٨٢)، وفي (الأوسط) (٧٢٧٩)، والبيهقي في (الكبرى) (١٧٥٦٣)، وفي (شعب الإيمان) (٧٠٨٤) من حديث ابن مسعود.

أي: أردته مما يجب عَلَيَّ كِنَايَةً عن غاية التسليم والانقياد إلى حكم الله ورسوله (لو سترت على نفسك) أي: لكان حسنًا (فلم يرد عليه) أي: على الرجل، أو على عمر (شيئًا) من الكلام انتظارًا لقضاءِ الله فيه، رجاء أن يخفف من عقوبته (فانطلق الرجل) أي: فذهب ظنًّا منه لسكوته عليه الصلاة والسلام أن الله سينزل فيه شيئًا، وأنه لابد أن يبلغه؛ فإن كان عفوًا شكر، وإلاَّ عاد ليستوفي منه (فاتبعه رسول الله ﷺ) أي: أرسل عقبه (رجلا) ليدعوه (فتلا عليه) أي: فقرأ عليه رسول الله ﷺ على الرجل (وأقم الصلاة طرفي النهار) الغداة والعشي، أي: الصبح والظهر والعصر (وزلفا) جمع زلفة، أي طائفة (من الليل) أي: المغرب والعشاء (إن الحسنات) كالصلوات الخمس (يذهبن السيئات) أي: الذنوب الصغائر (ذلك ذكرى للذاكرين) عظة للمتعظين [1] أ. هـ.

لذا أصبح لِزَامًا على ابن آدم في تلك الحالة أن لا يغفل عن الاستغفار والتوبة، وأن يتبع السيئة الحسنة، لأن الحسنة تَمْحُهَا، كما روى الإمام أحمد عن معاذ، أن رسول الله ﷺ قال: «**أَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**» [2].

وله عن أبي ذَرٍّ مرفوعًا أن رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَأَتْبِعْهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا**» [3].

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: (٧٨/٨).
(٢) أخرجه أحمد (٢١٥٥٤)، والطبراني في (الكبير) (٢٩٦)، وفي (الأوسط) (٣٧٧٩)، وفي (الصغير) (٥٣١)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٨٠٢٣) من حديث معاذ، وأخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٢٠٨٤٧)، والدارمي (٢٦٨٨)، والحاكم (١٧٨).
(٣) أخرجه أحمد (٢٠٩٧٦)، والسلسلة الصحيحة برقم: (١٣٧٣)، وصحيح الجامع برقم: (٦٩٠).

فالدائمون على حضور الصلوات الخمس في جماعة، يظل دوام النور في وجوههم وقلوبهم، لأن دوام الصلوات يساعد على دوام مَحْوِ السيئات، كما جاء في الحديث الذي رواه الطبراني من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الصُّبْحَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الظُّهْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعَصْرَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْمَغْرِبَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَحْتَرِقُونَ تَحْتَرِقُونَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمُ الْعِشَاءَ غَسَلَتْهَا، ثُمَّ تَنَامُونَ فَلا يُكْتَبُ عَلَيْكُمْ حَتَّى تَسْتَيْقِظُوا» (١).

وروى أحمد ومسلم والترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ» (٢).

قال القاشاني رحمه الله: لَمَّا كانت الحواس الخمس شواغل تشغل القلب بما يَرِدُ عليه من الهيئات الجسمانية، وتجذبه عن الحضرة الرحمانية، وتحجبه عن النور والحضور، بالإعراض عن جناب القدس، والتوجه إلى معدن الرجس، وتبذله الوحشة بالأنس، والكدورة بالصفاء، فُرِضَتْ خمس صلوات، يتفرغ فيها العبد للحضور، وَيَسُدُّ أبواب الحواس، لئلا يَرِدَ على القلب شاغلٌ يُشْغَلُهُ، ويفتح باب القلب إلى الله تعالى بالتوجه والنية، لوصول مدد النور،

(١) حديث حسن صحيح: رواه الطبراني في الأوسط (٣٥٨/٢)، والصغير (٩١/١)، وقال: (لم يروه عن حماد بن سلمة مرفوعًا إلا اللاحقي)، والحديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٩/١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٣)، والترمذي (٢١٤)، وأحمد (٨٩٤٤)، وابن خزيمة (١٨١٤)، وابن حبان (٤٧٣٣)، والبيهقي في (الكبرى) (٢١٣٥٦)، وفي (شعب الإيمان) (٣٦١٩)، وصحيح الجامع برقم (٣٨٧٥) عن أبي هريرة ﷺ.

ويجمع هَمَّهُ عن التفرق، ويستأنس بربه عن التوحش، مع اتحاد الوجهة، وحصول الجمعية، فتكون تلك الصلوات الخمس أبواب مفتوحة للقلب، على جناب الرَّبِّ، يدخل عليه بها النور بإزاء تلك الخمسة المفتوحة إلى جانب الغُرُورِ، وَدَارًا للعين الْغَرُورِ تدخل بها الظلمة لِيُذْهِبَ النورُ الوارِدُ آثار ظلماتها، ويكسح غبار كدوراتها، وهذا معنى قوله: {إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ} [هود: ١١٤] (١) أهـ.

فالقلب كالملك، والحواس كالجنود والرعايا، فإذا صَلُحَ الملكُ صلحت الجنود والرعايا، وإذا فسد الملك فسدت الجنود والرعايا، فصلاح القلب يعقبه صلاح الحواس، فإذا فسد يتم بفساده فساد الجوارح والحواس، لأن القلب إذا استقام على أي أمرٍ من الأمور ستستقيم معه الجوارح بإذنه تعالى، لقوله ﷺ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةٌ إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ» (٢).

فالإيمان يتسرب من القلوب الملتاسة بتلك الأخلاق المذمومة، كما يتسرب الماء من الإناء المشدوخ، والقلب الملتاس هو الذي يتأثر بتأثر هواهُ، فلا تثبت عنده عقيدة، فيتغير بتغير الظروف والمواقف

(١) محاسن التأويل للقاسمي: (١٤٢/٦).

(٢) رواه البخاري في (٣٤) كتاب البيوع، (٢) باب الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشتبهات (الحديث ٢٠٥١) عن النعمان بن بشير، ولفظه: (الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور مشتبهة، فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أو شك أن يواقع ما استبان، والمعاصي حمى الله، ومن يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه) رواه البخاري في (٢) كتاب الإيمان (٣٩) باب فضل من استبرأ لدينه (الحديث ٥٢) عن النعمان بن بشير، ورواه مسلم (٢٢) كتاب المساقاة (٢٠) باب أخذ الحلال وترك الشبهات (الحديث ١٥٩٩/١٠٧)، وغاية المرام برقم: (٢٠)، وصحيح الجامع برقم: (٣١٩٣) عن النعمان بن بشير ﷺ.

والأحداث، فتنعدم وجهته، فينحدر مع من ينحدر ويهوى إلى السقوط مع من يسقط، فلا تثنيه الشدائد، ولا توقظهُ العبر، ولا تؤثر فيه المواعظ، ولا يلين قلبه عند الاستماع لكلام الله تعالى، فيخرج منه الإيمان جزءًا جزءًا، حتى يصبح مثل الإناء المشدوخ الذي يفرغُ منه الماء قطرةً قطره، فيصبحُ خاليًا من نور البصيرة واليقين، فيكون خبيث النفس لا يعرف معروفًا ولا يُنكرُ مُنْكَرًا [1] أهـ.

فقد روى مسلم وأحمد من حديث حذيفة بن اليمان أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الْحَصِيرِ، عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى يَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مِرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» [2].

معنى قوله ﷺ: «تُعْرَضُ» أي: تلتصق بعرض القلوب، أي: جانبها، كما يلتصق الحصير بجنب النائم، ويؤثر فيه شِدَّةَ التصاقها به، و«عُودًا عُودًا» أي: تعادُ وتكررُ شيئًا بعد شَيْءٍ.

وقال الأستاذ **أبو عبد الله بن سليمان**: معناه تظهر على القلوب، أي: تظهر لها فتنة بعد أخرى، وقوله: «كالحصير» أي: كما ينسج الحصير عودًا عودًا وشظيَّةٌ بعد أخرى، قال **القاضي عياض رحمه الله**:

---

(١) يا باغي الجنة قف مع نفسك للمؤلف، ص: (٩٠).

(٢) رواه مسلم في (١) كتاب الإيمان (٦٤) باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب (الحديث ١٤٤/٢٣١)، عن حذيفة ﷺ، ورواه الإمام أحمد في مسنده، الحديث رقم (٢٣٣٤٠/٢٣٥٠٠) من حديث حذيفة بن اليمان ﷺ بألفاظ متقاربة، ومختصر مسلم برقم: (١٩٩٠)، وصحيح الجامع برقم: (٢٩٦٠-١٣٥٤).

وعلى هذا يترجَّحُ رواية ضَمِّ العين وذلك لأن ناسج الحصير عند العرب كلما صنع عودًا أخذ آخر ونسجه فَشَبَّهَ عَرْضَ الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير على صانعها واحدًا بعد واحدٍ.

قوله ﷺ: «فأيُّ قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء» ومعنى (أشربها) أي: دخلت فيه دخولاً تامًّا وألزمها وحلَّت منه محلَّ الشراب، ومنه قوله تعالى: {وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ} [البقرة: ٩٣].

أي: حُبَّ العجل، ومعنى: «أنكرها» أي: رَدَّهَا، وقوله ﷺ: «حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض والآخر أسود مربَادًّا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أشرب من هواه» قال القاضي عياض رحمه الله ليس تشبيهه بالصَّفا بيانًا لبياضه، لكن له صفة أخرى لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخلل، وأن الفتن لم تلتصق به، ولم تؤثر فيه كالصفا وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء [1] أهـ.

أما قوله ﷺ: «مربادًّا» أي: شدة البياض في سواد [2] أهـ.

وأما قوله ﷺ: «مُجَخِّيًا» أي: منكوسًا، أو قريبًا من المائل، قال القاضي عياض: قال لي ابن سَرَاجٍ: بأنه قُلِبَ وَنُكِّسَ حتى لا يعلق به خير ولا حكمة، أي: شَبَّهَ الْقَلْبُ الذي لا يعي خَيْرًا بالكوز المنحرف الذي لا يثبت الماء فيه.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: (١/٤١٢-٤١٣).
(٢) شرح السنن للبغوي: (٨/٢٩٩).

وقال صاحب التحرير: معنى الحديث أن الرجل إذا تبع هواه وارتكب المعاصي دخل قلبه بكل معصية يتعاطاه ظلمة، وإذا صار كذلك افتتن وزال عنه نور الإسلام، والقلب مثل الكوز انكبَّ وانصبَّ ما فيه، ولم يدخله شيء بعد ذلك [1] أهـ.

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي ::: جَعَلْتُ رَجَائِي نَحْوَ عَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ::: بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا
فَمَازِلْتُ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ ::: تَجَوُدُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا

فأنفع ما يكون للقلب النظر في حقِّ الله على العباد، فإن ذلك يورثه مقت نفسه، والازدراء عليها ويخلصه من العجب ورؤية العمل، ويفتح له باب الخضوع والذُّلِّ والانكسار بين يَدَيْ ربه واليأس من نفسه، وأن النجاة لا تحصل إلا بعفو الله عليه، ومغفرته ورحمته له، فإن من حَقِّهِ أن يُطاعَ ولا يُعْصَى، وأن يُذْكَرَ فلا يُنْسَى، وأن يُشْكَرَ فلا يُكْفَرَ، فمحاسبة النفس هو نظر العبد في حق الله عليه أولاً، ثم نظره هل قام به كما ينبغي ثانية؟ وأفضل الفكر الفكر في ذلك، فإنه يسير القلب إلى الله ويطرحه بين يديه ذليلاً، خَاضِعًا، مُنْكَسِرًا كَسْرًا فيه جَبْرُهُ، وَمُفْتَقِدًا فَقْدًا فيه غِنَاهُ، وَذَلِيلاً ذُلاًّ فيه عِزُّهُ، ولو عمل من الأعمال ما عساهُ أن يَعْمَلَ، فإنه إذا فاته هذا، فالذي فاته من البِرِّ أفضل من الذي أتى [2] أهـ.

* * *

(١) أ. هـ صحيح مسلم بشرح النووي: (٤١٤/١).
(٢) أ. هـ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم ص: ٩٨.

وَطَوْقُ النَّجَاةِ أَنْ تَبَرَّ وَالِدَيْكَ

وَٱلْبِرُّ: هو الوفاء والإحسان والطاعة للوالدين ومواصلة وصلهما، كما جاء في قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا} [الأحقاف: ١٥]، أي: أمرناه بالإحسان إليهما، فقد أخرج الطيالسي من حديث سعد بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: قَالَتْ أُمُّ سَعْدٍ لِسَعْدٍ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ اللهُ بِطَاعَةِ ٱلْوَالِدَيْنِ، فَلاَ آكُلُ طَعَامًا، وَلاَ أَشْرَبُ شَرَابًا حَتَّى تَكْفُرَ بِاللهِ تَعَالَى، فَامْتَنَعَتْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، حَتَّى جَعَلُوا يَفْتَحُونَ فَاهَا بِالْعَصَا، وَنَزَلَتْ ٱلآيَةُ أ. هـ [١].

وقد أخرج أبو داود من حديث بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيه عَنْ جَدِّهِ أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ: مَنْ أَبَرُّ؟ قَالَ: «أُمَّكَ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمَّكَ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمَّكَ» قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبَاكَ، ثُمَّ ٱلأَقْرَبَ، فَٱلأَقْرَبَ» [٢].

قال النووي: فِيه الْحَثُّ عَلَى بَرِّ الوالدين، وأن ٱلأُمَّ أحقهم بذلك، ثم بعدها الأب، ثم الأقرب فالأقرب، قالوا: وسبب تقديم الأم كثرة تعبها عله وشفقتها وخدمتها أ. هـ [٣].

ولذلك عندما سئل رسول الله ﷺ عن أَحَقِّ النَّاسِ بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ

(١) صحيح تفسير ابن كثير: (١٩٨/٤)، والحديث أخرجه الطيالسي (ص ٢٨ - ٢٩) في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ونحوه عند مسلم برقم: (١٧٤٨) في فضائل الصحابة، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) حديث حسن: أخرجه أبو داود (٥١٣٩) من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده، وفيه عنده زيادة، وحسنه الترمذي برقم: (١٨٩٧).

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: (٣١٦/٥).

قَالَ: «أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبَاكَ، ثُمَّ الْأَقْرَبَ فَالْأَقْرَبَ» [(١)].

وفي رواية أخرى قال ﷺ: «أُمُّكَ، وَأَبَاكَ، وَأُخْتُكَ، وَأَخَاكَ، وَأَدْنَاكَ أَدْنَاكَ» [(٢)].

فرضا الله تعالى في رضا الوالدين، وسخطهما في سخطهما، فقد أخرج ابن ماجة من حديث عبد الله بن عَمْرو، أن النبي ﷺ قال: «رِضَى الرَّبِّ فِي رِضَى الْوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ» [(٣)].

ثم جمع رسول الله ﷺ في الْحَثِّ على رِضَاهُمَا وَبرِّهِما، أي: الأم والأب، فقال: رضا الرَّبِّ في رضاهما، وسخطه في سخطهما، فقد روى الطبراني في الكبير من حديث ابن عَمْرو أن رسول الله ﷺ قال: «رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدِيْنِ، وَسَخَطُهُ فِي سَخَطِهِمَا» [(٤)].

وقد ربط الله تعالى شكره بشكر الوالدين، فقال: { وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ } [لقمان: ١٤]، فقد أوصى الله بالإحسان إلى الوالدين، لاَسِيمَّا الأم، لأنها حملته وَهْنًا على وَهْنٍ، أي: ضعفًا بعد ضَعْفٍ،

---

(١) والحديث رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، والحاكم، عن معاوية بن حيدة، وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه، وجاء في المشكاة برقم: (٤٨)، والإرواء برقم: (٨٣٧، ٢١٦٣)، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم: (١٣٩٩).

(٢) والحديث جاء في مسند أبي يعلى، والطبراني الكبير، والحاكم عن صَعْصَعَةَ الْمُجَاشِعِيِّ، والحاكم عن أبي رمثة، والطبراني أيضًا عن أسامة بن شريك، وجاء في الإرواء بأرقام: (٨٣٤، ٨٣٧، ٢١٦٣)، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم: (١٤٠٠ - ٦١٢).

(٣) حديث صحيح أخرجه ابن ماجة: (٢٠٨٩، ٣٦٦٣)، والترمذي برقم: (١٨٩٩)، ورواه الحاكم عن ابن عمرو، والبزار عن ابن عمر، وجاء في السلسلة الصحيحة برقم: (٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجماع برقم: (٣٥٠٦).

(٤) السلسلة الصحيحة برقم: (٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم: (٣٥٠٧).

وشِدَّةً بعد شِدَّةٍ، ولا يزال يتزايد ضعفها في ألم الحمل وشدة ثقله، وألم الولادة، وفترة الرضاعة، وسهر الليالي وتحمل العناء والمشقة في تلك الفترة لينال الرضيع راحته، وأما قوله:{أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ }، أي: بأن تعرف نعمة الإحسان وتقدره حق قدره، فقد جاء في البصائر: أَنَّ الشُّكْرَ مَبْنِيٌّ عَلَى خَمْسِ قَوَاعِدٍ: خضوع الشاكر للمشكور، وَحُبَّهُ لَهُ، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره، هذه الخمسة هي أساس الشكر وبناؤه عليها، فإن عَدِمَ منها واحدةً، اخْتَلَّتْ قاعدةٌ من قواعِدِ الشكرِ، وكل من تكلم في الشكر، فإن كلامه يرجع وعليها يدور، أما قوله تعالى:{إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ }، تعليل لوجوب الامتثال، أي: إِلَيَّ الرُّجُوعَ، لا إلى غيري فأجازيك على ما صدر عنك من الشكر والكفر أ. هـ [1].

وعن بعض العرب أنه حمل أُمَّهُ إلى الحج على ظهره وهو يقول في حداثه بنفسه.

أَحْمِلُ أُمِّي وَهِيَ الحَمَّالَهْ ::: تُرْضِعُنِي الدَّرَّةَ وَالْعُلاَلَهْ

وَلاَ يُجَارِي وَالِدٌ فَعَالَهْ

وشبيهٌ من ذلك أن عبد الله بن عمر مَرَّ على أعرابِيٍّ وهو يطوف حول الكعبة ويحمل أمه على ظهره ويرتجز، ثم يقول له: إنها تقضي حاجتها على ظهري، أتراني قد وَفَّيْتَ حَقَّهَا، قال عبد الله بن عمر: ولا بطلقة واحدة. لذا، فقد مَيَّزَ الله بين أبواب الجنة، فجعل خير الأبواب أعلاها، وأحسنها أوسطها، فالسعيد من حافظ على هذا الباب، لأن في المحافظة على ذلك الباب في الحفاظ على بِرِّ

(١) محاسن التأويل للقاسمي: (٦١٣/٩).

الوالدين، فقد روى الحاكم في المستدرك من حديث أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً أَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّ لِيَ امْرَأَةً وَإِنَّ أُمِّي تَأْمُرَنِي بِطَلاَقِهَا؛ قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَإِنْ شِئْتَ فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَابَ أَوِ احْفَظْهُ**» (١).

وَرُوِيَ عَنْ طَلْحَةَ السُّلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُرِيدُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «**أُمُّكَ حَيَّةٌ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْزَمْ رِجْلَهَا فَثَمَّ الْجَنَّةُ**» (٢).

وَعَنْ مَعَاوِيَةَ بْنِ جَاهِمَةَ أَنَّ جَاهِمَةَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُو، وَقَدِ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ؟ فَقَالَ: «**هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟**» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «**فَالْزَمْهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ عِنْدَ رِجْلِهَا**» (٣).

ورواه الطبراني بإسنادٍ جيدٍ، ولفظُهُ، أنه قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ أَسْتَشِيرُهُ فِي الْجِهَادِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَلَكَ وَالِدانِ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «**الْزَمْهُمَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ أَرْجُلِهِمَا**» (٤).

والسعيد أيضًا من حافظ على دخول الجنة في حياة والديه، أي:

---

(١) حديث صحيح: مرفوع من حديث خالد بن الحارث، وهو ثقة ثبت، انظر المستدرك للحاكم (ج ٣ ص: ١٥١ - ١٥٢)، والترمذي برقم: (١٩٠٠)، ورواه الإمام أحمد في مسنده، وابن ماجه، والحاكم من حديث أبي الدرداء أيضًا، وجاء في السلسلة الصحيحة برقم: (٩١٠)، والمشكاة برقم: (٤٩٢٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٧١٤٥)، ورواه ابن ماجه برقم: (٢٠٨٩)، وابن حبان برقم: (٤٢٦)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم: (٢٩٥٥).

(٢) صحيح بشواهده: عزاه الهيثمي في المجمع (١٣٨/٨) للطبراني، وقال: فيه ابن إسحاق، وهو مدلس عن محمد بن طلحة، ولم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح، والترغيب برقم: (٣٦٦٤).

(٣) حسن: رواه ابن ماجه (٢٧٨١)، والنسائي: (١١/٦)، والحاكم: (١٠٤/٢)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم: (٢٩٠٨)، والترغيب للمنذري برقم: (٣٦٦٦).

(٤) نفس التخريج السابق.

بالإحسان إليهما، وإرضائهما قدر استطاعته، والتوجه إليهما بأجمل الألفاظ، والتعامل معهما بتعامل الابن الرفيق الشفيق عليهما في شبابهما، والإحسان إليهما وَبَرِّهِمَا في شيخوختهما، فقد روى الإمام أحمد، ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُهُ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَهُ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا ثُمَّ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ» (١).

ولذلك حَذَّرَ اللهُ تبارك وتعالى من جفافِ حياءِ الوجهِ في التعامل مع الوالدين ولو كان أَقَلُّهَا كلمة: (أُفٍّ) كما جاء في قوله تعالى:

{وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾} [الإسراء: ٢٣ - ٢٤].

وَمِنْ أَبَرِّ ٱلبِرِّ مواصلة صداقة الأبناء أصدقاء الأباء وأقربائهم، كما أخرج مسلم من حديث عبد الله بن عمر أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ» (٢).

وأخرج مسلم من حديث عبد الله بن عمر أنه كان إذا خرج إلى مكة كان له حمار يَتَرَوَّحُ عليه إذا مَلَّ ركوب الراحلةِ وَعُمَامَةٌ يَشِدُّ بها رأسهُ فبينما هو يومًا على ذلك الحمار، إِذْ مَرَّ بِهِ أَعْرَابِيٌّ فقال له ابن عمر: ألست فلان بن فلان، قال: بلى، فأعطاه الحمار، وقال

(١) مختصر مسلم برقم: (١٧٥٨)، صحيح الجامع برقم: (٣٥١١).
(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢٥٥٢)، وأبو داود (٥١٤٣)، والترمذي: (١٩٠٣).

ارْكَبْ هذا وٱلعُمَامَةُ اشْدُدْ بها رأسك، فقال له بعض أصحابه: غفر الله لك، أعطيت هذا الأعرابي حِمَارًا كنت تروح عليه وعمامة كنت تشد بها رأسك، فقال إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ مِنْ أَبَرِّ ٱلبِرِّ صِلَةَ الرَّجُلِ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ» (١).

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله: نال المروءة مَنْ بَرَّ والديه، ووصل رَحِمِهُ، وأكرم إخوانه، وَحَسُنَ خُلُقَهُ مع أهله وولده وخدمه، وأحرز دينه، وأصلح ماله، وأنفق من فضله، وحفظ لسانه، ولزم بيته، يعني يكون مُقْبِلاً على عمله، ولا يجلس مع أهل الفضول، وروى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: سبع يُؤْجَرُ فِيهِنَّ مَنْ بَعَدَهُ:

١- من بني مسجدًا فله أجره ما دام أحدٌ يصلي فيه.

٢- ومن أجرى نهرًا فما دام يجري فيه الماء ويشرب من الناس كان له أجره.

٣- ومن كتب مصحفًا وأحسنهُ كان له أجره ما دام يقرأ فيه أحد.

٤- ومن استخرج عينًا ينتفع بمائها كان له أجرها ما بقيت.

٥- ومن غَرَسَ غَرْسًا كان له أجره فيما أكل الناسُ والطير.

٦- ومن علم علمًا كذلك.

٧- ومن ترك وَلَدًا يستغفرُ لهُ وَيَدْعُو لهُ من بعده.

وَرُوِيَ عن بعض الصحابة رضي الله عنهم، أنه قال: تَرْكُ الدعاءِ للوالدين يضيق العيش على الولد، قِيلَ له: **وهل يمكن أن**

(١) صحيح، أخرجه مسلم برقم: (٢٥٥٢).

يرضيهما بعد وفاتهما؟ قال: بلى يرضيهما بثلاثة أشياءٍ:

١- أن يكون الوالد صالحًا في نفسه، لأنه لا يكون شيءٍ أَحَبَّ إليهما من سلامته.

٢- أن يصل قرابتهما وأصدقائهما، فقد جاء في الحديث الذي أخرجه البخاري من حديث عَبْد اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلاً أَتَى النبي ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ؟ قَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟» قَالَ: لاَ، قَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٌ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَبِرَّهَا (١).

٣- أن يستغفر لهما وَيَدْعُوَ لهما، ويتصدق عنهما، فقد روى الإمام مسلم، والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا مَات ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ إِلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِه، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ بِالْمَغْفِرَةِ» (٢).

فإذا أراد العبد أن يبارك الله له في عمره ورزقه، فليحسن إلى والديه، وليصل أرحامه، فقد روى الإمام أحمد من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُمَدَّ لَهُ فِي عُمُرِهِ وَيُزَادُ فِي رِزْقِهِ، فَلْيَبَرَّ وَالِدَيْه وَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» (٣).

وَعَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لاَ يَرُدُّ الْقَضَاءُ

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري برقم: (٢٦٩٩)، والترمذي برقم: (١٩٠٤).
(٢) رواه مسلم (١٦٣١)، والنسائي (٣٦٥١)، والترمذي (١٣٧٦)، وأبو داود (٢٨٨٠)، وأحمد (٨٦٣٧).
(٣) حسن بشواهده، رواه أحمد (٢٦٦/٣)، والترغيب للمنذري برقم: (٣٦٦٩)، ورواه الإمام أحمد أيضًا (١٣٣٩٩)، وقال الشيخ الألباني في صحيح الترغيب والترهيب للمنذري حسن لغيره برقم: (٢٤٨٨).

إِلاَّ الدُّعَاءُ، وَلاَ يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلاَّ الْبِرُّ» [1].

ثُمَّ أَخْتِمُ وَأَقُولُ: إِنَّ برَّ الوالدين سَبَبٌ في تفريج الكروب ليس في الآخرة فقط، ولكن في الدنيا أيضًا:

قال ابْنُ كثير عن طاووس عن أبيه قال: كان رجل له أربعة بنين فمرض، فقال أحدهم: أما أن تمرضوه وليس لكم من ميراثه شيء، وإما أن أمرضه وليس لي من ميراثه شيء، قالوا: بل تمرضه وليس لك من ميراثه شيء، فَمَرَّضَهُ حتى مات، ولم يأخذ من ميراثه شيئًا، فأتى في المنام فقيل له: ائت مكان كذا وكذا فخذ منه مائة دينار، فقال: أفيهما بركة؟ قالوا: لا، فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته، فقالت: خذها فإن من بركتها أن نكتسي منها ونعيش بها، فلما أمسى أتى في النوم فقيل له: ائت مكان كذا وكذا فخذ منه عشرة دنانير، فقال: أفيهما بركة؟ قالوا: لا، فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته، فقالت له مثل ذلك، فأبى أن يأخذها، فأتى في الليلة الثالثة، فقيل له: ائت مكان كذا وكذا وخذ منه دينارًا. قال أفيه بركة؟ قالوا: نعم؟ قال: فذهب فأخذ الدينار، ثم خرج به إلى السوق، فإذا هو برجل يحمل حوتين فقال: بكم هما؟ قال: بدينار، فأخذهما منه وانطلق بهما إلى بيته، فلما شَجَّهُمَا وجد في بطن كل واحدٍ منهما دُرَّةً لَمْ يَرَ الناسُ مِثْلَهَا، فبعث الملك يطلبُ دُرَّةٍ يشتريها فلم توجدُ إلا عندهُ، فباعها بثلاثين وَقْرًا، أي: حْملاً) ذَهَبًا، فلما رآها الملك قال ما تصلح هذه إلا بأخت فاطلبوا أختها ولو أضعفتم الثمن، فجاؤوه فقالوا: أعندك أختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك؟ قال: نعم، فأعطاهم الثانية بضعف ما باع

(١) حديث حسن: حسنه الألباني في صحيح الترمذي برقم: (١٧٣٨).

الأولى [1] أهـ.

وروى الإمام أحمد عن ابْنِ عُمرَ رَضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَتَّى أَوَاهُمُ الْمَبِيتُ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ، فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَجَرٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ» [2].

وفي رواية البخاري: «فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَّجَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ حَتَّى رَأَوْ مِنْهَا السَّمَاءَ».

وَلِلْوَالِدَيْنِ عَلَى الْوَلَدِ عَشْرَةُ حُقُوقٍ:

إحداهما: أنه إذا احتاج إلى الطعام أطعمه.

والثاني: إذا احتاج إلى الكسوة كساهُ إن قدر عليه، وهكذا رُوِيَ عن رسول الله ﷺ: «إن المصاحبة بالمعروف أن يطعمهما إذا جاعا، ويكسوهما إذا عُرِيا.

(١) البداية والنهاية لابن كثير: (٩/٢٤٦ - ٢٤٧).
(٢) رواه البخاري (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

والثالث: إذا احتاج أحدهما إلى خدمةٍ خَدَمَهُ.

والرابع: إذا دعاهُ أجابهُ وحضرهُ.

والخامس: إذا أمرهُ بأمرٍ أطاعهُ ما لم يُؤمَرُ بالمعصية والغيبة.

والسادس: أن يتكلم معه باللين، ولا يتكلم بالكلام الغليظ.

والسابع: أن لا يدعوه باسمه.

والثامن: أن يمشي خلفه.

والتاسع: أن يرضى له ما يرضى لنفسه.

والعاشر: أن يدعو له بالمغفرة كما يدعو لنفسه، قال تعالى: حكاية عن إبراهيم - عليه السلام - :{ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾ } [إبراهيم: ٤١]. أي: يوم القيامة.

إذن فلا ينبغي للولد:

١- أن لا يتكلم إذا شهد والديه إلا بإذنهما.

٢- أن لا يمشي بين يديهما.

٣- ولا يمشي عن يمينهما.

٤- ولا عن شمالهما إلا أن يدعواه فيجيبهما.

٥- ولكن يمشي خلفهما كما يمشي العابد خلف مولاه.

٦- ولا يُطيل النظر بعينه إلى أحدهما ولكن ينظر إلى الأرض حياءً منهما.

٧- ولا يرفع صوته في حضرتهما خوفًا على جرح مشاعرهما.

٨- وأن يكون حُبَّهُ لهما حُبًّا طبيعيًّا لا حب الوقتِ والمصلحةِ.

* * *

وَطَوْقُ النَّجَاةِ أَنْ تَخْشَى اللهَ

فالخشية: هي ارتجاف القلب وزلزلة أركانه عند الاقتراب من المعصية، أو محاولة الدخول فيها، فاعلم عبد الله أن الأيام ثلاثةٌ يومٌ مَضَى وليس لك فيه شيءٌ إلا أن تندم على ما اقترفت من ذنوب فيما مضى، فتبادر بالاستغفار وَتجِدُّ في التوبة وتعمل من أجل اللقاء، ويومٌ حَاضِرٌ، أي: ما أنت عليه الآن وهو يوم العمل، فأحسن فيه قدر المستطاع وليكن شعارك مع الله الخشية في كل حركاتك وسكناتك، فاعلم لحاضرك، فإنك لا تدري هل ستعيش إلى الغد أم لا، وَيَوْمُ المستقبلِ، وهو اليوم الذي في علم الله، فكن في الدنيا وكأنك غريبٌ، كما جاء في الحديث الصحيح من حديث ابْنِ عُمَرَ - رضي الله عنهما - أَنَّهُ قَالَ: أَخَذَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِبَعْض جَسَدِي فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ الْقُبُورِ».

وَقَالَ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: إِذَا أَصْبَحْتَ، فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالْمَسَاءِ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، فَلاَ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالصَّبَاحِ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ، فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِي يَا عَبْدَ اللهِ مَا اسْمُكَ غَدًا [1].

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِب رَضَي اللهُ عَنْهُ: إنما أخشى عليكم اثنين

(١) رواه البخاري في (٨١) كتاب الرقاق (٣) باب قول النبي ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب وعابر سبيل» (الحديث ٦٤١٦) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه وفيه: (منكبي) بَدَلاً من (ببعض جسدي)، ولم يذكر (وعد نفسك من أهل القبور)، ورواه الترمذي في (٣٧) كتاب الزهد (٢٥) باب ما جاء في قصر الأمل (الحديث ٢٣٣٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما. ورواه الإمام أحمد في مسنده الحديث رقم ٥٠٠٢ ج٥، من مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بلفظ: أخذ رسول الله ﷺ بثوبي، أو بعض جسدي، وقال: عبد الله: «كن كأنك غريب أو عابر سبيل وعدَّ نفسك من أهل القبور».

طول الأمل واتباع الهوى، فإن طُولَ الأمل يُنسي الآخرة وإن اتباع الهوى يَصُدُّ عن الحقِّ.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: ليس الزهد في الدنيا بلبس الغليظ والخشن، وأكل الجشب، إنما الزهدُ في الدنيا قِصَرُ ٱلأَمَلِ.

وَقَالَ عَوْنٌ: كم من مستقبلٍ يومًا لا يستكمله وَمُنْتَظِرٍ غدًا لا يبلُغُهُ، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره، لأبغضتم الأمل وغروره.

قال الحق - جلا وعلا - :{ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ } [الأنبياء: ٤٩].{ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا } [الأحزاب: ٣٩].{فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ } [المائدة: ٤٤].

أي: لا تخافوا عقاب الناس، بل خافوا عقابي، لأنني أنا المستحق لذلك.

قال الزمخشري: نَهْيٌ للحكام عن خشيتهم غير الله في حكوماتهم وإدهانهم فيها، وإمضائها على خلاف ما أمروا به من العدل لخشية سلطانٍ ظالمٍ، أو خِيفَةَ أَذِيَّةِ أحدٍ من القرباءِ أو الأصدقاءِ أ. هـ [1].

وقال الحق - جل وعلا - :{ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ } [التوبة: ١٣]، يحث الله تعالى المؤمنين بعدم الخوف والخشية من المشركين فالأحق بالخشية هو وحده، كما جاء في التفسير: يقول تعالى:{فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ } أي: فأنا أهلٌ أن يَخْشَى العبادُ من سطوتي وعقوبتي، فَبِيَدِي الأمرُ وَمَا شِئْتُ كان وما لم أشأ لم يكن، ثم

(١) محاسن التأويل للقاسمي: (١٤٩/٤).

قال تعالى عزيمةً على المؤمنين، وبيانًا لحكمته فيما شرعَ لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمرٍ من عنده أ. هـ [1].

أما قوله تبارك وتعالى:{ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: ١٠٩]، أي: خضوعًا لله عز وجل وإيمانًا وتصديقًا بكتابه ورسوله، ويزيدهم الله خشوعًا، أي: إيمانًا وتسليمًا أ. هـ [2].

فَدَلَّ نعت هؤلاء ومدحهم بخرورهم باكين، على استحباب البكاء والتخشع، فإن كان كل ما حمد فيه من النعوت والصفات التي وصف الله تعالى بها من أحب من عباده، يلزم الإتصاف بها، كما أن ما ذَمَّ منها من مقته منهم، يجب اجتنابه، وقد عَدَّ الإمام الغزاليُّ في (الإحياء) من آداب ظاهر التلاوة البكاء. قال: البكاء مُسْتَحَبٌّ مع القراءة. قال رسول الله ﷺ: «اتْلُوا الْقُرْآنَ وَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكُوا» [3].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا قرأتم سجدة سبحان، فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم، فَلْيَبْكِ قلبه، وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن، فمن الحزن ينشأ البكاء، ووجه إحضار الحزن، أن يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره حزنٌ وبكاءٌ، كما يحضر أرباب القلوب الصافية، فليبك على فقد

(١) صحيح تفسير ابن كثير: (٢٦٨/٢).
(٢) المصدر السابق: (٦٧٧/٢).
(٣) أخرجه ابن ماجة (١٣٣٧)، (٤١٩٦)، وأبو يعلى (٦٨٩)، والبزار (١٢٣٥)، وابن أبي الدنيا في (الهم والحزن) (٨٧)، والبيهقي في (الكبرى) (٢١٦٦١)، وفي (شعب الإيمان)، (٢٠٥١)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

الحزن والبكاء، فإن ذلك أعظم المصائب [1] أ هـ.

وقوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟} [فاطر: ٢٨]، أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفةُ للعظيم القدير العليم، الموصوفِ بصفاتِ الكمال، المنعوتِ بالأسماء الحُسنى، كلما كانت المعرفة به أتمَّ، والعلمُ به أكملَ كانت الخشيةُ له أعظمُ وأكثرُ [2] أ هـ.

وقوله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟} تكملة لقوله تعالى: { إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ } [فاطر: ١٨]، أي: إنما يخشاهُ تعالى بالغيب، العالمون به عز وجل، وبما يليق من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة، لما أن مدار الخشية معرفة المخشي والعلم بشؤونه، فمن كان أعلم به تعالى، كان أخشى منه عز وجل، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أَنَا أَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ» [3].

وَقَرِيبٌ من ذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن رجلٍ من الأنصارِ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَتْقَاكُمْ للهِ، وَأَعْلَمَكُمْ بِحُدودِ الله» [4].

وقال القاشاني: أي: ما يخشى الله إلا العلماء العرفاء به؛ لأن الخشية ليست هي خوف العقاب، بل هيئة في القلب خشوعية انكسارية عند تَصَوُّرِ وصف العظمة واستحضاره لها، فمن لَمَ

(١) تفسير محاسن التأويل للقاسمي: (٥٤١/٦).
(٢) صحيح تفسير ابن كثير: (٦٤١/٣).
(٣) أخرجه البخاري (٤٧٧٦)، وابن حبان (٣١٧)، والبيهقي في (الكبرى) (١٣٧٣٣)، وفي شعب الإيمان (٥٤٧٧)، من حديث أنس رضي الله عنه.
(٤) السلسلة الصحيحة برقم: (٣٢٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (١٤٤٨ - ٦٤١).

يتَصَوَّرَ عظمته لم يمكنه خشيته، وَمَنْ تَجَلَّى الله له بعظمته، خَشِيَهُ حَقَّ خَشْيَتَهُ، وبين الحضور التَّصَوُّرِيِّ الحاصل لِلْعَالِمِ غير العارفِ، وبين التَّجَلِّيِّ الثابتُ للعالِم العارفِ - بَوْنٌ بَعِيدٌ، ومراتب الخشية لا تُحصى بحسب مراتب العلم والعرفان أ. هـ [1].

ولذلك فقد جعل رسول الله ﷺ الخشية من الله تعالى من المنجيات من النار، وطوق النجاة لمن يريد أن يأمن العقاب في الآخرة، فقد روى الطبراني في الأوسط من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثَلاَثٌ مُنجِيَاتٌ: خَشْيَةُ الله تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلاَنَيَةَ، وَالْعَدْلُ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَثَلاَثٌ مُهْلِكَاتٌ: هَوىً مُتَّبَعٌ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَإِعْجَابُ الْمرءِ بِنَفْسِهِ» [2].

فما أجمل ولا أخشع من دموعٍ ساخنةٍ تنزلُ على وَجْنَتَيْ عَابِدٍ يتعبدُ خُلْوَةٍ يتقاطرُ دمعهُ على لحيتهِ لتبلَّ الأرض عند سجوده في مناجاةٍ لله تعالى مع انكسارِ قلبهِ وخشوعِ جوارحه، فقد قال رسول الله ﷺ: «لاَ يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ الله حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ، وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ الله وَدُخَانَ جَهَنَّمَ فِي مُنْخَرَيْ مُسْلِمٍ أَبَدًا» [3].

ولذلك فقد جعل الله من فاضت عيناه خوفًا وَوَجَلاً وَخَشْيَةً من الله تعالى من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة عند اقتراب

(١) تفسير محاسن التأويل للقاسمي: (٨/٤٥).
(٢) قاله أبو الشيخ في (التوبيخ) وجاء في السلسلة الصحيحة برقم: (١٨٠٢)، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم: (٣٠٣٩).
(٣) رواه الإمام أحمد، والترمذي، والنسائي، والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وجاء في المشكاة برقم: (٣٨٢٨)، والترغيب برقم: (٢/١٦٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٧٧٧٨/٢٨٨٢).

الشمس من الرؤوس وتقول كل نفسٍ نَفْسِي نَفْسِي، فقد جاء في صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود أن رسول الله ﷺ قال: «تَدْنُو الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ، فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا» (١).

فالحصنُ الحصينُ، والحبلُ المتينُ في ذلك اليوم هما دمعتانِ تنزلانِ على الأرض عند السجود في خلوةٍ بينك وبين غَفَّار الذنوب، كما قال رسول الله ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ الله ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ، إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْه ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ ، فاجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَافْتَرَقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ» (٢).

ولذلك عندما أسرف رجلٌ من بني إسرائيلَ وكان مُسْرِفًا في المعاصي، ولم يعمل حسنةً قطُّ، بل الأدهى والأمرَّ من ذلك أنه كان يُعَرِّي الموتى ولا يسترها، حيث كان يقومُ بعد دفنِ الموتى بسرقة أكفانهم، وهو الأمرُ الصعبُ، العسيرُ

(١) مختصر مسلم برقم: (١٩٥٣)، والسلسلة الصحيحة برقم: (١٣٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٢٩٣٣ - ١٣٤٥).

(٢) رواه الإمام مالك، والترمذي عن أبي هريرة وأبي سعيد - رضي الله عنهما، ورواه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد معًا، وجاء في مختصر مسلم برقم: (٥٣٧)، والإرواء برقم: (٨٨٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٣٦٠٣).

عند الخلائق، فَمَا بَالُكَ بِرَبِّ الْخَلاَئِقِ، ولكن عند اقتراب أجله أوصى أولاده، وكان مَفَادُ الوصيةِ خشية الله تعالى، فقد جاء في الحديث الصحيح من حديث حذيفة بن اليمان أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ رَجُلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ (كَانَ نَبَّاشًا لِلْقُبُورِ يَسْرِقُ أَكْفَانَهَا) حَضَرَهُ الْمَوْتُ، فَلَمَّا يَئِسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ إِذَا أَنَا مِتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا، وأَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ لَحْمِي وَخَلَصَتْ إِلَى عَظْمِي فامْتَحَشَتْ (أي: احْتَرَقَتْ)، فَخُذُوهَا وَاطْحَنُوهَا، ثُمَّ انْظُرُوا يَوْمًا رَاحًا (أَيْ: كَثِيرا الرِّيَاحِ)، فَاذْرُوه فِي الْيَمِّ (أَيِ: الْبَحْرِ) فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللهُ، فَقَالَ لَهُ: لِمْ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، فَغَفَرَ اللهُ لَهُ».

وأخرج البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ، قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللهُ الْأَرْضَ، فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ، فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟، قَالَ: يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ فَغَفَرَ لَهُ»[1].

وجاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ، لَمْ يَعْمَلْ حَسَنَةً قَطُّ، لِأَهْلِهِ: إِذَا مَاتَ، فَحَرِّقُوهُ، ثُمَّ اذْرُوا نِصْفَهُ فِي الْبَرِّ وَنِصْفَهُ فِي الْبَحْرِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ اللهُ عَلَيْهِ لَيُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا لَا يُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَرَّ، فَجَمَعَ مَا فِيهِ، وَأَمَرَ الْبَحْرَ، فَجَمَعَ مَا فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟، قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ يَارَبِّ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ فَغَفَرَ اللهُ لَهُ»[2].

(١) البخاري: حديث رقم: (٣٤٨١)، ومسند الإمام أحمد، رقم: (١٤) ط. أحمد شاكر (١/١٧٢-١٧٥).
(٢) البخاري (٧٥٠٦)، ومسلم (٢٧٥٦).

وجاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ رَجُلاً حَضَرَهُ الْمَوْتُ فَلَمَّا أَيِسَ مِنَ الْحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ إِذَا أَنَا مِتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا جَزْلاً، (أَيْ: غَلِيظًا قَوِيًّا)، ثُمَّ أَوْقِدُوا فِيهِ نَارًا، حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ لَحْمِي، وَخَلُصَتْ إِلَى عَظْمِي فَامْتَحَشَتْ (أَيْ: احْتَرَقَتْ) فَخُذُوهَا فَاطْحَنُوهَا، ثُمَّ انْظُرُوا يَوْمًا رَاحًا، فَاذْرُوهَا فِي الْيَمِّ، فَفَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ، فَجَمَعَهُ اللهُ، وَقَالَ لَهُ: لِمَ فَعَلْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: مِنْ خَشْيَتِكَ، فَغَفَرَ لَهُ» [1].

ثم يأتي المتحدث عن الخشية والخوف من عقاب الله تعالى عندما يذكر ما كان بينه وبين امرأة أعجبته، وحينما اقتربت منه وتمكن منها مثل ما يتمكن الرجل من زوجته، فلما ذكرته بالله قام عنها خشيةً منه سبحانه: وإليك عزيزي القارئ جزءًا من أطراف الحديث: «وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أُحِبُّ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ عَمِّي كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرَّجُلُ النِّسَاءَ فَقَالَتْ لاَ تَنَالُ ذَلِكَ مِنْهَا حَتَّى تُعْطِيَهَا مِائَةَ دِينَارٍ فَسَعَيْتُ فِيهَا حَتَّى جَمَعْتُهَا ، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: اتَّقِ اللهِ وَلاَ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ ، فَقُمْتُ وَتَرَكْتُهَا ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً ، قَالَ: فَفَرَجَ عَنْهُمْ الثُّلُثَيْنِ» [2].

لأنه حافظ على أعراض المسلمين ففرّج الله عنهم غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها، فمن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «رَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ» [3].

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، والبخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجة عن حذيفة بن اليمان، وأبي مسعود رضي الله عنهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٢٠٧٤ - ٩٢٩).
(٢) البخاري (٢٢١٥)، وأحمد (٥٩٣٧).
(٣) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١)، ورواه الإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة، وجاء في مختصر مسلم برقم: (٥٣٧)، والإرواء برقم: (٨٨٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٣٦٠٣).

وكان الضحاك بن مزاحم: إذا أمسى بكى فيقال له: ما يُبكيك؟ فيقول: لا أدري ماذا صعد اليوم من عملي!

وقال ثابت البناني: كنا نتبع الجنازة فما نرى إلاَّ مُتَقَنِّعًا بَاكِيًا، أو متقنعًا متفكرًا.

وقال كعب الأحبار: لأن أبكى من خشية الله فتسيل دموعي على وجنتي أحب إليَّ من أن أتصدق بوزني ذهبًا.

وقال قتادة: كان العلاء بن زياد إذا أراد أن يقرأ القرآن ليعظ الناس بكى، وإذا أوصى أجهش بالبكاء.

وقال الذهبي: كان ابن المنكدر إذا بكى مسح وجهه ولحيته من دموعه ويقول: بلغني أن النار لا تأكل موضعًا مَسَّتْهُ الدموع، وعن **محمد بن المبارك**، قال: كان سعيد بن عبد العزيز إذا فاتته صلاة الجماعة بكى.

وقال معاوية بن قرة: مَنْ يَدُلُّنِي عَلَى رَجُلٍ بَكَّاءٍ بِاللَّيلِ بَسَّامٍ بِالنَّهَارِ؟

وقال بكر بن عبد الله المزني: من مثلك يا ابن آدم خلي بينك وبين المحراب، تدخل منه إذا شئت وتناجي ربك، ليس بينك وبينه حجاب ولا ترجمان، إنما طيب المؤمن الماء المالح هذه الدموع فأين من يتطيبون بها؟

مُثِيرَاتُ الْبُكَاءِ:

١ - الخلوة الصالحة في أوقات إجابة الدعاء: فالخلوة الصالحة هي خليلة الصالحينَ وَالْعُبَّادِ وكل قلب يفتقرُ إلى خلوةٍ، والخلوة المقصودة

في ذلك الشأن، هي الخلوة التي يقصدها المرءُ بِنِيَّةِ التَّعَبُّد لله تعالى والخلوص له سبحانه وتعالى، حيث قال تعالى: {وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ۝٨} [المزمل: ٨]، أي: أكْثِرْ من ذكره وانقطع إليه وتفرغ لعبادته إذا فرغت من انشغالك وما تحتاج إليه من أمورِ دُنياك، كما قال تعالى: {فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧} [الشرح: ٧]، أي: إذا فَرَغْتَ من مَهَامِّكَ فانصب في طاعته وعبادته لتكون فارغ البالِ، وتبتل إليه تبتيلا، أي: أخلص له في العبادة أ. هـ [١].

وهذه الخلوة الصالحة يكون فيها التدبر في شأن الإنسان وحاله مع ربه، ويكون فيها محاسبة المرء لنفسه، ويكون فيها استدعاء تاريخ حياة كل واحد مع نفسه وفقط، وتكون فيها المصارحة والمكاشفة بين كل امرئٍ وقلبه، فيعرف مقامه وتقصيره وكم هو مذنب مقصر خطاء، وعندما يسارع إلى الاستغفار والبكاء من خشيته سبحانه.

٢- الإنصات والتدبر للتذكرة والموعظة: فكم من كلمة طيبة كانت سببًا في تغيير حياةِ إنسانٍ من الغفلة إلى الاستقامة، وقد حَذَّر العلماء من إغفال التذكرة وعدم التأثر بها، **فقال إبراهيم بن أدهم**: علامة سواد القلب ثلاث... منها: أَلاَّ يجد المرء في التذكرة مألمًا!..

وكان الحسن إذا سمع القرآن قال: والله لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حزن وذبل، وإلا نصب، وإلا ذاب، وإلا تعب.

وقال ذَرٌّ لأبيه عمر بن ذر الهمداني: ما بال المتكلمين يتكلمون فلا

(١) صحيح تفسير ابن كثير (٥٤٣/٤).

يبكي أحد، فإذا تكلمت أنت يا أبت سمعت البكاء من هاهنا وهاهنا؟ فقال: يا ولدي ليست النائحة الثكلى، كالنائحة المستأجرة.

٣- محاسبة الجوارح ومخاطبتها: فعن أحمد بن إبراهيم قال: نظر يونس بن عبيد إلى قدميه عند موته فبكى وقال: قدماي لم تغبرا في سبيل الله!، فهذه إذن حسرات الصالحين، حسرة يوم يذكر طاعة لم يتمها، وحسرة يوم يذكر خيرًا لم يشارك فيه، وحسرةٌ يوم يمر عليه وقت لا يذكر الله تعالى فيه، والحق إن في حديث الجوارح استرجاعٌ لواقع المرءِ الحقيقيِّ الذي غاب عنه، فلينظر إلى كل جارحة من جوارحِه ويخاطبها: كم ذنب شاركت فيه؟ وكم من طاعة قَصَّرْتِ عنها؟ وكم من توبةٍ تَمَنَّعْتِ عنها؟ وكم من استغفارٍ غفلت عنه؟ ثم يذكر قوله تعالى: {حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾} [فصلت: ٢٠ - ٢١]، وروى مسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: ضَحِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، أَوْ تَبَسَّمَ، فَقَالَ ﷺ: «أَلاَ تَسْأَلُونِي عَنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ ضَحِكْتَ؟ قَالَ: «عَجِبْتُ مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّه يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَلَيْسَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تَظْلِمنِي؟ قَالَ: بَلَى، فَيَقُولُ: فَإِنِّي لاَ أَقْبَلَ عَلَيَّ شَاهِدًا إِلاَّ مِنْ نَفْسِي، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعالَى: أَوَ لَيْسَ كَفَى بِي شَهِيدًا وَبالْمَلاَئِكَةِ الْكِرَام الْكَاتِبِينَ؟ قَالَ: فَيُرَدِّدُ هَذَا الْكَلاَمَ مِرَارًا، قَالَ: فَيَخْتِمُ عَلَى فِيهِ وَتَتَكَلَّمُ أَرْكَانُهُ بِمَا كَانَ يَعْمَلُ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، عَنْكُنَّ كُنْتُ أُجَادِلُ» [(١)].

(١) مسلم برقم: (٢٩٦٩).

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلاَ تَقُلْ ::: خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفَلُ سَاعَةً ::: وَلاَ أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْكَ يَغِيبُ

الْبُكَاءُ وَالإِخْلاَصُ:

تساؤل يثار حول الموقف من البكاء أمام الناس وفي حضرتهم رغم ما يمكن أن يكتنف هذا من التماس ببعض شبهات المراءاة للناس، وتصوير النفس بالخشوع والتقوى، فكثير من الناس يمتنعون عن ذلك البكاء ولا يبدونه مهما كانت الأحوال مخافة الاتهام بالرياء، أو مخافة مداخلة الناس العجب، وعلى جانب آخر يرى البعض أن البكاء في المجالس وفي المواعظ شيء طبيعي لأصحاب القلوب الرحيمة لا يمكن إنكاره أو اتهام صاحبه بسوء نية، فما هو الموقف الصائب إذن؟

النَّاظِرُ إلى أحوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن تابعهم ونهج نهجهم من علماء الأمة ليرى بوضوح أن البكاء كان سمة مميزة لهم، بل الأكثر من ذلك.. إن بعضهم كان ربما يظل طوال درس العلم الذي يلقيه يظل يبكي حتى ينتهي، فيروي الإمام الذهبي عن أبي هارون قال: كان عون يحدثنا ولحيته ترتش بالدموع، وقال جعفر بن سليمان: كنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع حسبت أنه وجه ثكلى.. إلى غير ذلك من الآثار المتكاثرة، ولكن هناك أيضًا من الآثار ما حض على إخفاء ذلك البكاء وجعله في الخلوة ومنفردًا فقط: فعن محمد بن زيد قال: (رأيت أبا أمامة أتى على رجل في المسجد وهو ساجد يبكي في سجوده فقال له: أنت أنت لو كان هذا في بيتك).

وقال سفيان بن عيينة: (اكتم حسناتك كما تكتم سيئاتك)، بل نقل الذهبي عن عمران بن خالد قال سمعت محمد بن واسع يقول: إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته لا تعلم به.. إلى غير ذلك من الآثار.

وخلاصة القول في ذلك أن يُعَلِّمَ الإنسان نفسه البكاء من خشية الله وعند سماع الموعظة والذكر والتذكرة وعند محاسبته لنفسه، أو غير ذلك، والأصل في البكاء أن يكون في الوحدة ومنفردًا وفي الخلوات، ولكن إذا كان المرء بين الناس وغلبة البكاء فلا شيء في ذلك أبدًا إذا اطمأن من نفسه الصدق والإخلاص بل إن ذلك كان حال الصالحين.

نَصَائِحُ تَرْبَوِيَّةٌ:

١- تهيئة البيئة التربوية الإيمانية مهمة في تربية المرء على رِقَّةِ القلب واستشعار الخشوع واعتياد العين على البكاء، فلم يكن الصالحون يصلون إلى هذه الدرجة العالية من البكاء من خشية الله لولا أن هناك بيئة إيمانية تربوا عليها وفيها أعانتهم على ذلك وتلك البيئة لها أكبر الأثر في التشجيع على الأعمال الصالحة والتربي عليها، والمربون الذين يهملون تهيئة البيئة أو يتناسون أثرها هم مخطئون ولا شك، ويروي ابن الجوزي أن عمر بن عبد العزيز بكى ذات ليلة، فبكت فاطمة زوجته، فبكى أهل الدار لا يدري أولئك ما أبكى هؤلاء، فلما تَجَلَّتْ عَنْهُمُ الْعَبْرَةَ سألوه، ما أبكاك؟ فقال: ذكرت منصرف القوم بين يَدَيِ الله فريقٌ في الجنةِ، وفريق في السعير، فما يزالوا يبكون!

٢- أثر القدوة مهم جدًا في التربية على تلك العبادة الصالحة فقد كان البكاؤون يَجِدُونَ القدوة الصالحة في ذلك من معلميهم ومربيهم، فكانوا يتشبهون بهم إلى أن يصير العمل الصالح عندهم أساسًا وأصلاً، أما أن يُبَحَّ صوت أو معلم يعظ الناس في البكاء والناس لم يروا عليه أبدًا أثرًا للبكاء فلا أثر لنصحه أبدًا.

٣- يجب ألا يكون بكاء المرء على شيء من الدنيا فائت أو صاحب فُقِدَ، أو مصيبة حدثت فذلك بكاء الدنيا، وإنما مقصودنا هو بكاء الخشية من الله، وهو أن يكون باعث البكاء دائمًا هو خشية الله سبحانه وتوقيره والتقصير في حقه تعالى وكثرة ذنوب العبد وخوف العاقبة، وقد كانت أسباب بكاء الصالحين السابقين تدور حول: تذكر ذنبهم وسيئاتهم وآثار ذلك، أو التفكر في تقصيرهم تُجَاهَ ربهم سبحانه وما وراء ذلك، أو الخوف من عذاب الله سبحانه وسوء الخاتمة، أو الخوف من ألا تقبل أعمالهم الصالحة، أو الخوف من الموت قبل الاستعداد له أو الشوق إلى الله سبحانه وتعالى ومحبته، أو خوف الفتن ورجاء الثبات على دينهم أو رجاء قبول الدعاء [١] أهـ.

قال ابن تيمية – رحمه الله: (كُلُّ عَاصٍ لِلَّهِ فَهوُ جَاهِلُ، وَكُلّ خَائِفٍ مِنْهُ فَهُوَ عَالِمٌ مُطِيعٌ)، فالخائف من الله يُبادرُ إلى الخيرات قبل الممات، ويغتنم الأيام والساعات.

ويتكلم عن حال السلف ابن المبارك - رحمه الله. فيقول:

إِذَا مَا اللَّيْلُ أَظْلَمَ كَابَدُوهُ ::: فَيَسْفَرُ عَنْهُمُ وَهُمْ رُكُوعُ
أَطَارَ الْخَوْفُ نَوْمَهُمُ فَقَامُوا ::: وَأَهْلُ النَّوْمِ فِي الدُّنْيَا هُجُوعُ

(١) شبكة الإنترنت: http//forum.al-wlid.com/t465455.html.

لَهُمْ تَحْتَ الظَّلاَمِ وَهُمْ سُجُودُ ::: أَنِينٌ مِنْهُ تَنْفَرِجُ الضُّلُوعُ
وَخَرَسٌ بِالنَّهَارِ لِطُولِ صَمْتٍ ::: عَلَيْهِمُ مِنْ سَكِينَتِهِمْ خُشُوعُ

الْخَوْفُ مِنَ اللهِ وَقِصَّةُ التُّفَّاحَةِ:

لقد حدث في القرن الأول الهجري أن شابًا تقيًّا كان يطلب العلم ويتفرغ له، ولكنه كان فقيرًا، وفي يومٍ من الأيام خرج من بيتهِ من شِدَّةِ الجوعِ ولأنه لم يجد ما يأكله فانتهى به الطريق إلى بستانٍ من البساتين والتي كانت مملوءة بأشجارِ التفاح، وكان أحد أغصان شجرة منها مُتدلِّيًا في الطريق، فحدثته نفسه أن يأكل هذه التفاحة وَيَسِدَّ بها رمقه ولا أحد يراهُ، ولن ينقص هذا البستان بسبب تفاحة واحدة، فقطف تفاحة واحدة وجلس يأكلها حتى ذهب جوعه، ولما رجع إلى بيته بدأت نفسه تلومه وهذا هو حال المؤمن دائمًا، فجلس يفكر ويقول: كيف أكلت هذه التفاحة وهي مالٌ لمسلمٍ ولم أستأذن منه ولم أستسمحه فذهب يبحث عن صاحب البستان حتى وجده فقال له الشاب: يا عم بالأمس بلغ بي الجوع مبلغًا عظيمًا وأكلت تفاحة من بستانك من دون علمك وها أنا إذن اليوم أستأذنك فيها، فقال له صاحب البستان: والله لا أسامحك، بل أنا خصيمك يوم القيامة عند الله... بدأ الشاب المؤمن يبكي ويتوسل إليه أن يُسامحه وقال له: أنا مستعد أن أعمل أي شيءٍ بشرط أن تُسامحني وتحللني وبدأ يتوسل إلى صاحب البستان وصاحب البستان لا يزداد إلا إصرارًا، وذهب وتركه والشاب يلاحقه ويتوسلُ إليه حتى دخل بيته وَبَقِيَ الشاب عند البيت ينتظر خروجه إلى صلاة العصر، فلما صاحب البستان وجد

الشاب لا زال واقفًا ودموعه التي تنهمر على لحيته فزادت وجهه نورًا غير نور الطاعة والعلم، فقال الشاب بالصاحب البستان: يا عم إنني مستعدٌ للعمل فَلاَّحًا في هذا البستان من دون أجرٍ باقي عمري أو أيِّ أمْرٍ تريد ولكن بشرط أن تسامحني، عندما أطرق صاحب البستان يفكر ثم قال يَا بُنَيَّ أنني مستعد أن أسامحك الآن، لكن بشرط.. فرح الشاب وتهلل وجهه بالفرح، وقال اشترط ما بدى لك يا عم، فقال صاحب البستان: شرطي هو أن تتزوج ابنتي!!! صُدِمَ الشاب من هذا الجواب وَذُهِلَ ولم يستوعب بعد هذا الشرط، ثم أكمل صاحب البستان قوله... ولكن يا بنيَّ اعلم أن ابنتي عمياءَ وصماءَ وبكماءَ، وأيضًا مقعدة لا تمشي ومنذ زمن وأنا أبحث لها عن زوج استأمنهُ عليها ويقبل بها بجميع مواصفاتها التي ذكرتها، فإن وافقت عليها سامحتكُ صُدِمَ الشابُّ مَرَّةً أخرى بهذه المصيبة الثانية وبدأ يفكر كيف يعيش مع هذه الْعِلَّةِ خصوصًا أنه لا زال في مقتبل العمر؟ وكيف تقوم بشؤونه وترعى بيته وتهتم به وهي بهذه العاهات؟ بدأ يحسبها ويقول اصبر عليها في الدنيا ولكن انْجُوَ من ورطة التفاحة!!!، ثم توجه إلى صاحب البستان وقال له: يا عم لقد قبلت ابنتك وأسأل الله أن يجازيني على نِيَّتي وأن يُعَوِّضَنِي خيرًا مما أصابني، فقال صحاب البستان: حَسَنًا يَا بُنَيَّ موعدك الخميس القادم عندي في البيت لوليمة زواجك وأنا أتكفَّلُ لك بمهرها، فلما كان يوم الخميس جاء هذا الشاب متثاقل الخطى.. حزين القلب.. منكسر الخاطر.. ليس كأي زوج ذاهبٍ إلى يوم عُرْسِهِ، فلما طرق

البابَ فتح له أبوها وأدخله البيت وبعد أن تجاذبا أطراف الحديث قال له يا بني: تفضل بالدخول على زوجتك وبارك الله لكما وعليكما وجمع بينكما على خير، وأخذه بيده وذهب به إلى الغرفة التي تجلس فيها ابنته، فلما فتح الباب ورآها، فإذا فتاةٌ بيضاء أجمل من القمر، قد انسدل شعرٌ كالحرير على كتفيها فقامت ومشت إليه، فإذا هي ممشوقة القوام وَسَلَّمَتْ عليه وقالت: السلام عليك يا زوجي، أما صاحبنا فهو قد وقف في مكانه يتأملها وكأنه أمام حورية من حوريات الجنة نزلت إلى الأرض وهو لا يصدق ما يرى ولا يعلم ما الذي حدث، ولماذا قال أبوها ذلك الكلام؟

ففهمت ما يدور في باله فذهبت إليه وصافحته وَقَبَّلَتْ يَدَهُ وقالت: إنني عمياء من النظر إلى الحرام، وبكماء من النظر إلى الحرام، وَصَمَّاءَ من الاستماع إلى الحرام، ولا تخطو رجلاي خطوة إلى الحرام، وأنني وحيدة أبي ومنذ عدة سنوات وأبي يبحث لي عن زوجٍ صالحٍ، فلما أتيته تستأذنه في تفاحة وتبكي من أجلها، قال أبي: أن من يخاف من أكل تفاحة لا تَحِلَّ له حَرِيٌّ به أن يخاف الله في ابنتي، فهنيئًا لي بك زوجًا وهنيئًا لأبي بنسبك، وبعد عامٍ أنجبت هذه الفتاة من هذا الشاب غلامًا كان من القلائل الذين مَرُّوا على هذه الأمة.. أتدرون من ذلك الغلام؟

إنه الإمام أبو حنيفة صاحب المذهب الفقهي المشهور [1] **أهـ.**

* * *

(١) شبكة الإنترنت: http://svlggo.mamg.com/t14-topic.

طَوْقُ النَّجَاةِ أَنْ تُؤَدِّ الْأَمَانَةَ

الأمانةُ والأمنةُ ضد الخيانة، وقد أَمِنَهُ، وَأَمَّنَهُ، وائتمنهُ واستأمنهُ، أما قوله - جلا وعلا -:{ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ } [الأحزاب: ٧٢]، أي: الفرائض المفروضة، أو النية التي يعتقدها فيما يظهره باللسان من الإيمان، ويؤديه من جميع الفرائض في الظاهر، لأن الله تعالى ائتمنه عليها، ولم يظهرها لأحد من خلقه، فمن أضمر من التوحيد مثل ما أظهر، فقد أدى الأمانة أ. هـ [1].

ولذلك فقد قيل عن جبريل عليه السلام (الأمين) لأنه أمين وحي السماء، فقد نقل عن رَبِّ العزة - جل وعلا - كل مَا بَلَّغَهُ رب العالمين للأنبياء والرسل دون زيادة أو نقص، وَسُمِّيَ محمد ﷺ (الصَّادِقُ ٱلأَمِينُ)، لأنه حمل رسالة السماء فيما بَلَّغَ عن رب العزة فحملها بأمانة، وَبَلَّغَهَا بأمانة إلى أهل الأرض إنسهم وجنهم، قال الحق - جل وعلا -:{ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ } [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]، أي: نزل به ملك كريمٌ أمينٌ، مُطَاعٌ ذو مكانة عند الله وعند الملأ الأعلى وهو جبريل عليه السلام، وعندما تآمرت قريش على محمد ﷺ، وجمعوا له من كل قبيلة شابًا قويًا ليضربوه ضربة رجلٍ واحدٍ فيتفرق دمه بين القبائل، جعل رسول الله ﷺ عَلِيُّ بن أبي طالب ينام في فراشه، لأن ﷺ حَمَّلَهُ إرجاع الودائع إلى أهلها والتي أودعها عنده أعداؤه وهم كُفَّارُ قريش، وهم الذين يريدون أن يظفروا بن ليقتلوه، إلا أنهم كانوا لا يأتمنون من أهل مكة إلا هو، ولذلك مَا سَمَّوْهُ إلا (الصَّادِقُ ٱلأَمِينُ).

(١) القاموس المحيط (ص: ١٠٦٠).

وَالْأَمَانَةُ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

أَمَانَةٌ فِي حقِّ اللـهِ تَعَالَى: وهي أمَانـةُ المرءِ في جميع الفرائض التي فرضها الله على عباده.

أَمَّا الْأَمَانَةُ فِي حَقِّ الْبَشَرِ: وهي كثيرةٌ جِدًّا، فكل ما أُمر به البشر من حفظٍ للأمانة، أو تأديتها من ودائع، أو أمانة مالية، أو أشياء معارة، أي: يعيرك إياها مثل: إناءٍ، أو ساعةٍ، أو فراشٍ، أو سيارةٍ، أو أشياء من ذلك القبيل، فأصبحت هذه في يدك، أوجب الله عليك أن تكون أمينًا عليها، بل وتحرص كل الحرصِ على صيانتها وحفظها أكثر من حرصك على حاجتك.

قال عَلِيُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ دخل علينا رجل من أهل العالية، والعالية هي ضاحية من ضواحي المدينة، فقال: يا رسول الله: قل لي ما هي ألين كلمة في الإسلام وأشدُّها؟ قال رسول الله ﷺ : «**ألين كلمة في الإسلام هي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وأشدُّ كلمة في الإسلام هي الأمانة، فإنه لا دين لمن لا أمانة له**».

فأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله هي كلمةٌ سهلة يسيرةٌ تنزلق على أطراف اللسان فيقولها كل الناس، يقولها: العامة والخاصةُ، الصادق والكاذب، الصالح والطالح، البارُّ والفاجرُ، المسلم وغير المسلم، المنافق والممسك على دينه، الأمين والغشاش، فبها اتحدت والتفت وتجمعت حولها ملل، وبها قامت وارتفعت شأنها دول، وبها بَعُدَتْ وجوهٌ غَفِيرَةٌ كانت سَتُكَبُّ على مناخرهم في فيح جهنم، ولولا أن الله ألهمهم

بها لذاقوا ويلات جهنم وحرِّها وسمومها وصديدها.

أَمَّا عَنِ الْأَمَانَةِ فهي أشدُّ كلمة في الإسلام، لأن الْمُمْسِكُ بها مُمْسِكٌ ببقيةَ شرائع دينه، لأنها شديدةٌ على النفس، ثقيلةٌ على صاحبها، فمن أدَّاها بحقها فاز بسعادة الدارين، ومن ضيَّعها ولم يُحافظُ عليها خَسِرَ الدنيا والآخرة، فالأمانة تشمل كل جوانب الحياة.

قال ابن عباس رضي الله عنه: (الْأَمَانَةُ هِيَ: الْفَرَائِضُ الَّتِي افْتَرَضَهَا اللهُ عَلَى عِبَادِهِ) (١).

وقال أبو العالية: (الْأَمَانَةُ هِيَ: مَا أُمِرُوا بِهِ وَمَا نُهُوا عَنْهُ) (٢).

الدِّيْن أَمَانَةٌ:

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (عُرضت الأمانةُ على آدم عليه السلام، فَقِيلَ له: خُذْهَا بما فيها، قال: وما فيها؟ قال: إن أطعت غفرتُ لَكَ، وإن عصيتَ عَذَّبْتُكَ، قال: قبلتها بما فيها، فما كان إلا ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أكل من الشجرة، لولا أن تداركه الله برحمته فتاب عليه وهدى، كما جاء في قوله تعالى:{ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ } [البقرة: ٣٥ - ٣٧].

فالأمانة مُشْتَقَّةٌ من الإيمان، فمن حفظ أمانة الله حفظ الله إيمانه،

(١) أخرجه ابن جرير في (تفسيره) لسورة الأحزاب (٧٢).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) كما في (الدُّرّ المنثور) (٥٩١/٦).

وَمَنْ حافظَ على إيمانه حفظه الله دينه، وقال رسول الله ﷺ : «لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ، وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ» (١).

ٱلأَمْرُ بِتَأْدِيَةِ ٱلأَمَانَةِ:

إن الله جَلَّتَ قدرته أمر بتأدية الأمانة، فلذلك حَرِصَ كل لبيب نجيب على حفظها وتأديتها لأصحابها كما هي من غير نقص، أو تَسْويفٍ في ميعاد تسليمها، كما قال الحق تبارك وتعالى:{إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا } [النساء: ٥٨].

فيخبر تعالى أنه يأمر بتأدية الأمانات إلى أصحابها، وهو سبحانه وتعالى يَعُمُّ جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله تعالى على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفَّارات والنذور وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلعُ عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يُؤْتَمنُونَ به من غير اطِّلاَعِ بَيِّنَةٍ على ذلك، فأمر الله تعالى بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا، أُخِذَ منه يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الذي أخرجه مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا، حَتَّى يُقْتَصَّ لِلشَّاةِ الْجَمَّاءُ مِنَ الْقرناَءُ» (٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد وابن حبان في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، وجاء في (الترغيب ٨٠/٤) ط. دار الحديث، ورواه البزار أيضًا، وجاء في إيمان ابن أبي شيبة (٧)، والمشكاة (٣٥)، والروض (٥٢٦/١)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم: (٧١٧٩).

(٢) صحيح، تفسير ابن كثير: (٤٩٢/١)، والحديث أخرجه مسلم برقم: (٢٥٨٤)، ورواه الإمام أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومختصر مسلم برقم: (١٨٣٧)، والسلسلة الصحيحة برقم: (١٥٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٥٠٦٢).

وأخرج أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ، وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ» [1].

فإنك يا عبد الله ستسأل عنها يوم القيامة بين يَدَيِ الله، فحافظ عليها ولا تُضَيِّعْهَا، وانظر ماذا تحاجُّ عن نفسك غدًا؟

وإذا استرجعنا مرةً أخرى حديث الغار والثلاثة الذين أصابهم المطر فدخلوا في غار في الجبل، فسدت عليهم صخرة كبيرة حبستهم داخل الغار، حتى أنهم كانوا لا يَرَوْن ضوء الشمس، وبدأ كل واحدٍ منهم يستعرض صالح أعماله، حتى انفرج ثلثي الصخرة وهم لا يستطيعون الخروج من النار، وعندما تكلم الطرف الثالث والذي كان حريصًا على أداء الأمانة والإخلاص وإصلاحُ العمل للغير، حيث استأجر أجراء على عمل عنده، فأعطاهم أجورهم إلا واحدًا استصغر قيمة أجره، فرفض أن يأخذه وتركه وانصرف، فقام المستأجر وَثَمَّرَ هذا المال حتى نما وَكَبُرَ وصار منه الإبل والبقر والغنم والرقيق، فلما ضاقت بالأجير الحاجة تذكر هذا المال الذي له عند المستأجر فذهب إليه وقد مضى على ذلك مدةً من الزمن، فقال له: (يا عبد الله أعطني أجري، فقال له: كل ما ترى فهو لك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فلما ذُكِرَ صالِح عمله، اكتمل انفراجُ الصخرةِ وخرجوا سالمين، فقد جاء في جزء من الحديث المتفق عليه من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن رسول الله

(١) روى في التاريخ للبخاري، والحاكم عن أبي هريرة، والدارقطني، والضياء عن أنس رضي الله عنه، والطبراني في (الكبير) عن أبي أمامة، وأبي داود عن رجل من الصحابة، والدارقطني عن أُبَيْ بن كعب رضي الله عنه، وجاء في الروض برقم: (١٦)، والسلسلة الصحيحة برقم: (٤٢٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٢٤٠).

ﷺ قال: « وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ وأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ ، أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الْإِبِلِ ، وَالْبَقَرِ ، وَالْغَنَمِ ، وَالرَّقِيقِ ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ ، لَا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ» (١).

وفي رواية ابن حبان أنه جاء فيها: «وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَأْجَرْتَ أَجِيرًا يَوْمًا ، فَعَمِلَ لِي نِصْفَ النَّهَارِ ، فَأَعْطَيْتُهُ أَجْرًا ، فَسَخِطَهُ ، وَلَمْ يَأْخُذْهُ ، فَوَفَّرْتُهَا عَلَيْهِ حَتَّى صَارَ مِنْ كُلِّ الْمَالِ ، ثُمَّ جَاءَ يَطْلُبُ أَجْرَهُ ، فَقُلْتُ: خُذْ هَذَا كُلَّهُ وَلَوْشِئْتَ لَمْ أُعْطِهِ إِلاَّ أَجْرَهُ الْأَوَّلَ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ رَجَاءَ رَحْمَتِكَ ، وَخَشْيَةَ عَذَابِكَ فَافْرُجْ عَنَّا فَزَالَ الْحَجَرُ ، وَخَرَجُوا يَمْشُونَ » (٢).

وأخرج البخاري والإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ ، فَقَالَ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ، قَالَ: فَأْتِنِي بِالْكَفِيلِ ، قَالَ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا ، قَالَ: صَدَقْتَ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَخَرَجَ فِي الْبَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ ، ثُمَّ الْتَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ ، لِلْأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا ، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ ، وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ ، ثُمَّ

(١) البخاري (٤/٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).
(٢) صحيح: رواه ابن حبان (٩٦٧)، وكذلك البزار (١٨٨٦) بإسنادٍ صحيح.

زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى الْبَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ فَسَأَلَنِي كَفِيلًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا، فَرَضِيَ بِكَ وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا فَرَضِيَ بِكَ، وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا فَرَمَى بِهَا فِي الْبَحْرِ، حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ يَنْظُرُ، لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالْخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَالُ فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ الْمَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ فَأَتَى بِالْأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: وَاللهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ، قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الْخَشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بِالْأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا»[1].

هذا الرجل كان حريصًا على أداء الأمانة في حينها دون تسويف، وعندما ذهب لتأدية ما عليه وحالة الظروف بينه وبين السفر لعدم وجود مركبٌ يركبها، حتى أنه اجتهد في أن يجد مركبًا يبعث فيه الألف دينار فلم يستطع، ومن شدة حرصه على إرسال الأمانة في وقتها احتال حيلة بأنه قد أخذ خشبة ونقرها وأدخل فيها الألف دينار، وكتب معها رسالة، ثم ألقاها في البحر، فعلم الله بصدق نية هذا الرجل وحرصه على تأدية الأمانة التي يريد أداءها في حينها، ولذلك قد هيأ الله

(١) أخرجه البخاري، كتاب الكفالة باب الكفالة في القرض والديون بالأبدان وغيرها (٢٢٩١) معلقًا، وجاء في صحيح الجامع برقم: (٢٠٨١ - ٩٣٦).

الظروف والأسباب لتلك الخشبة التي ألقاها المدين في البحر لتصل إلى يد الدائن في أجلها، أي: حينها، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَخَذَ دَيْنًا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُؤَدِّيهِ، أَعَانَهُ اللهُ» (١).

وقال أيضًا: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ إِتْلاَفَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ» (٢).

فأداء الأمانات لأصحابها، أو حفظها وعدم ضياعها صفةٌ من صفات الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين، وشيمة من شيم الكرام المخلصين، وخلةٌ الأبرار المتقين.

مُكَافَأَةُ عَدَمُ التَّفْرِيطِ فِي الْأَمَانَةِ:

ذكر ابن رجب وغيره أن رجلاً من العُبَّادِ كان في مكة، وانقطعت نفقته، وجاع جوعًا شديدًا، وأشرف على الهلاك، وبينما هو يدور في أحد أزقة مكة إذ عثر على عقدٍ ثمينٍ غالٍ نفيسٍ، فأخذه في كمه وذهب إلى الحرم، إذا برجل ينشد عن هذا العقد، قال: فوصفه لي، فما أخطأ من صفته شيئًا، فدفعت له العقد على أن يعطيني شيئًا. قال: فأخذ العقد وذهب، لا يلوي على شيء، وما سلمني درهمًا ولا نقيرًا ولا قطميرًا، قلت: اللهم إني تركت هذا لك، فعوِّضني خيرًا منه، ثم ركب جهة البحر فذهب بقارب فهبت ريحٌ هوجاء، وتصدَّعَ هذا

(١) رواه النسائي عن ميمونة رضي الله عنها، وجاء في السلسلة الصحيحة برقم: (٢٥٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٥٩٨٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها (٢٣٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ورواه الإمام أحمد في مسنده، وابن ماجة عنه أيضًا، وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع برقم: (٥٩٨٠).

القارب، وركب هذا الرجل على خشبة، وأصبح على سطح الماء تذهب به الريح يُمْنَةً وَيُسْرَةً، حتى ألقته إلى جزيرة، ونزل بها، ووجد بها مسجدًا وقومًا يصلون فصلى، ثم وجد أوراقًا من المصحف فأخذ يقرأ، قال أهل تلك الجزيرة: أتُنك لتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، قالوا: عَلِّمْ أبناءنا القرآن، فأخذت أعلمهم بأجرة، ثم كتبتُ خَطًّا، قالوا: أتعلم أبناءنا الخط؟ قلت: نعم، فعلمتهم بأجرة، ثم قالوا: إن هُنَا بنتًا يتيمة كانت لرجلٍ مِنَّا فيه خيرٌ وتوفي عنها، هل لك أن تتزوجها؟ قلت: لا بأس، قال: فتزوجتها ودخلت بها فوجدتُ ٱلعِقْدَ ذلك بعينه بعنقها، قلت: ما قصة هذا العقد؟ فأخبرت الخبر، وذكرت أن أباها أضاعه في مكة ذات يومٍ فوجده رجلٌ فسلمهُ إليه، فكان أبوها يدعو في سجوده، أن يرزق ابنته زوجًا كذلك الرجل قال: فأنا الرجل، فدخل عليه العقد بالحلال، لأنه ترك شيئًا لله فَعَوَّضَهُ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ، لأَنَّ اللهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا [1] أهـ.

* * *

(١) الأثر جاء في موسوعة الأخلاق الإسلامية: (٣/٤٨٠-٤٨١)، نقلاً من كتاب (لا تحزن) للشيخ/ عائض القرني.

وَطَوْقُ النَّجَاةِ أَيْضًا أَنْ يَتَذَكَّرَ ابْنُ آدَمَ حَالَهُ وَمَآلَهُ

ويتذكر نشأته وولادته وهو طفل رضيع ينقله وَالِدَيْهِ ليحركانه كيف شاءوا، ولا حول له ولا قوة، ويتذكر مآله في مرضه وسفره للآخرة، وأبناؤه يحركانه كيف شاءوا ولا حول له ولا قوة، ولكن شتان بين الحالتين.

في الطفولة يحرك الوالدين الابن ويحملانه وهم سعداء وَيَتَمَنَّوْنَ له الحياة وطول البقاء، أما في كبره وطول مرضه يُحَرِّكُهُ الأبناء وهم غير راغبين في ذلك، بل كارهين له، وإن ظهروا راغبين، لكنهم في حقيقة الأمر متضجرين مُتَأَفِّفِينَ مُتمنِّينَ له الموت، فحب الأب لأبناءه طبيعة، وحب الابن لوالديْه صنعه، حب الأب للأبناء غريزةٌ، فطرها الله في قلوب الآباء، وحب الابن لوالديه صنعه تَصَنعًّهَا كلما كان محتاجًا لوالديه إلا ما رحم ربي، فالطفل ينشأ ضعيفًا، ثم تنشأ معه عضلاته، ليصبح شابًا، فتيًّا يمشي على الأرض بقوةٍ، ثم يتصارع مع الحياة والعمل فتصارعه، ثم تَمُرُّ الأيامُ سِرَاعًا ثم يعود نفس الضَّعْفِ مَرَّةً أخرى في كبره وشيخوخته،{ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً} [الروم: ٥٤].

كما جاء في سياقه تعالى:{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ }

[الحج: ٥].

فهذه الآية تدل على أن الطفل يبلغ كمال القوة والعقل ليكبر شيئًا فشيئًا، ثم يعود لنفس الضعف في طفولته شيئًا فشيئًا إلى الهرم والخرف، وأردأ العمر، وسبحان منه له الدوام في كل الأمور.

وقد خرج عَلِيٌّ وَعَمَرُ من الطَّوَافِ، فإذا هما بأعرابيٌّ يحملُ أمَّهُ على ظهره وهو يرتجزُ ويقول، أي: يقول نوعًا من الشِّعْر:

أَنَـــا مَطِيَّتُهَـــا لاَ أُنْفَـــرُ ::: وَإِذَا الرِّكَابُ ذُعِـرَتْ لاَ أُذْعَـرُ

وَمَا حَمَلَتْنِي وَأَرْضَعَتْنِي أَكْبَرْ

لبيك اللهم لبيك، فقال عَلِيٌّ: يا أبا حفص، ادخل بنا الطواف، لَعَلَّ الرحمةَ تنزلُ فتعمنا، فدخل الرجلُ يطوفُ بها ويقولُ:

أَنَـــا مَطِيَّتُهَـــا لاَ أُنْفَـــرُ ::: وَإِذَا الرِّكَابُ ذُعِـرَتْ لاَ أُذْعَـرُ

وَمَا حَمَلَتْنِي وَأَرْضَعَتْنِي أَكثَرُ

لبيك الله لبيك، وَعَلِيٌّ ﷺ يقول:

إِنْ تَبَرَّهَـــا فَـــاللهُ أَشْـــكَرُ ::: يَجْزِيـــكَ بِالْقَلِيـــلِ الأَكْثَـــرُ

ثم قال الأعرابيُّ، يا عمر أنا أحملها على عاتقي وهي تقضي حاجتها على ظهري، أَتُرانِي قد وَفَّيْتَ حَقَّهَا، قال عُمَرُ ﷺ - لا، ولا بطلقةٍ واحدةٍ، فقد كنت تفعل معها ذلك وأنت صغيرٌ وكانت مُحِبَّةً لذلك، وتتمنَّى لك طول الحياة، وأما ما تفعله معها الآن، فأنت تتمنى لها الموت وعدم طول البقاء، وهذه هي الحقيقة وإن أنكرناها بألسنتنا.

لقد خُلِقَ الإنسان من التراب، وإلى التراب يعود، فَلَوْ تَأَمَّلْتَهُ في ذهوه وحياته وسلطانه في الدنيا وهو يتمتع بنعيمها من مأكلٍ وملبسٍ

وَمَشْرَبٍ ومسكنٍ ومركبٍ، وتأملته أيضًا وهو يَدُبُّ على الأرض في كال اتجاهٍ بقوَّةٍ وتجبُّرٍ، مَزْهُوًّا بنفسه وبصحته، فهذا هو حاله في الدنيا، ثم انظر وتَدَبَّرَ إلى مآله في مرضهِ وضعفهِ وانكسارهِ وقلةِ حيلتهِ وَمَنْ بجواره يحركونه كيف شاءوا، فإذا أرقدوه على ظهره، فلا يستطيع أن يتحرك على إحدى جنبيه، وإذا جلس لا يستطيع أن يستمر في جلسته إلا إذا أسنده الجالسون مَنْ حوله، فقد تقيدت العضلات ووقفت بعد قُوَّهْ، ونحل الجسد القويُّ وخار وضعف بعد الفتوهْ، وصار الصدر يعلو ويهبط ولا حول ولا قوهْ، ثم انظر (بعد موته) وقد أرم جسده وتحلَّلت أعضائه وأصبح ترابًا، حاله كحال التفاح قبل أن يؤكل وأنت تتطلعُ إليه بشكله الجميل، ولونه البديع الذي يخطف أبصار الناظرين إليه، فهذا هو حاله وجماله وزينته عندما يعرضهُ البائعُ، ثم انظر إلى مآله بعد أن يُؤْكَلُ وَيُهْضَمُ ماذا يكون؟؟!

فكل شَيْءٍ في الوجود له بدايةُ لابد وأن يكون له نهاية وهذه سنةُ الكون، وَسُنَّةُ الله في أرضه، فالليل مهما طال، فلابُدَّ من طلوعِ الفجر، والعمرُ مهما طال فلا بُدَّ من دخول القبرِ، وأعمارُ ابن آدم في نقصانٍ مُسْتَمِرٌ لا يدري ماذا يفعل مع زخارف الدنيا ومتاعها الزائل إلا ما رحم ربي.

أَذْكُرُ أن أَحَدَ الشخصيات التي أعرفها جيدًا وكان يعمل في حقل التعليم، فكان مُدْهَنُ الشعرِ عظيم الثياب، بليغ اللسان، طيب الرائحة، يمشي مختالاً بنفسه يَتمنى مَنْ يَرَاهُ أن يكون في مثل حظه.

تَوَفَّى هذا الرجلُ فجأةً، فذهبنا لتوديعه ودفنه، وبعد ثلاثة أيامٍ هَبَّتْ رِيحٌ على القرية أنتنُ من ريح الجَيَفِ جَزَعَ منها الجميع

وَسَدُّوا نوافذ البيوت، وجلس كُلُّ وَاحِدٍ منهم يسأل نفسه عن سبب هذه الرائحة، وبعد جَهْدٍ جَهِيدٍ اهتدوْا إلى مكانها، فوجدوها في قبر صاحب الشخصية المرموقة التي دُفِنَتْ حديثًا، وأن القبر يوجدُ به متنفسًا أي (ثقوب)، ولم تنته هذه الرائحة إلا بعد سَدِّ هذه الثقوب، وَوَضْعِ طَبَقَةٍ من الطين على القبر كله، هذا هو حال الإنسان ومآله:

وجلست بين يَدَيْ نفسي أفكر تفكير العقلاء، أهكذا مصيرُ الإنسانِ؟ وجال الفكرُ بي لحظةً، وأنا أَتَخَيَّلُ هذا الرجلُ وهو مَنْ كان يمشي مختالاً بنفسه مزهوًّا بعلمه يتمنى كل من يراهُ أن يكون في مكانته، فكان إذا جلس بين الناس مُجْتَمِعًا تكلم بلسانٍ مُفَوَّهٍ لا يتلعثم في جملةٍ، وَلاَ يتَعَثَّرُ في لَفْظَةٍ، فقلتُ في نفسي أهذا هو حال الإنسان ومصيره بهذه الرائحة التي أزكمت منها أنوف في القرية جميعًا، فانتبهت إلى ما نحنُ عليه صائرون، وقلت: هذه هي النهاية حقًا، فكانت اليقظة، فاتبعت طريق الله والتزمتهُ.

قال الحق تبارك وتعالى: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾} [الحديد: ٢٠].

وأخرج الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير وقد أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وِطَاءً، أي: فِرَاشًا تَطَؤُهُ وَتنامُ عليه، فقال رسول الله ﷺ: «مَالِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلاَّ كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا» (١).

(١) حديث صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٧٧/٤)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣١٧)، والسلسلة الصحيحة برقم: (٤٣٩) و(٤٤٠)، وفي صحيح الترمذي

فَمَطْلُوبٌ من الإنسان الزهد في الدنيا وذلك بأن يجعلها في يده لا في قلبه، فإذا كانت في يدهِ فهو مالكُ زمامها، وإذا كانت في قلبه، فقد ملكته وتحكَّمت فيه وَجَرَّتْهُ وراء أزيالها وأستارها وزخارفها الزائلة، لذا وجب على الحريصِ الفقيهِ اللبيب أن يعرض عنها، ولا يحرص عليها ويتبع طريق الله وَيَسْتَقِمْ عَلَيْهِ، كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾} [يونس: ٢٤].

لقد ضرب الله تبارك وتعالى مثلاً لزهرةِ الحياةِ الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماءٍ أُنزِلَ من السماء، مِمَّا يأكلُ الناس مِنْ زروعٍ وثمارٍ على اختلافِ أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من أَبٍّ وَقَضْبٍ وغير ذلك{حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا }، أي: زينتها الفانيةُ{وَٱزَّيَّنَتْ }، أي: حَسُنَتْ بما خرج في رُبَاهَا من زهورٍ نضرةٍ، مختلفة الأشكال والألوان{وَظَنَّ أَهْلُهَآ }، الذين زروعوها وغرسوها{أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ} أي: على جِذَاذِهَا وَحَصَادِهَا، فبينما هم كذلك إِذْ جاءتها صاعقةٌ أو ريحٌ شديدةٌ باردةٌ، فأيبستَ أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى:{أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا } أي: يابسًا بعد الخضرةِ والنضارةِ{كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ } أي: كأنها ما كانت حِينًا قبل ذلك، قال قَتَادَةُ: كَأَنْ لَمْ تُنَعَّمْ، وهكذا الأمورُ بعد زوالها، كأنها لم تَكُنْ، وقوله تعالى:{كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ } أي: نبين الْحُجَجَ

(١٩٣٦).

والأدلة {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}، فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعًا، مع اعتزازهم بها وَتَمَكُّنِهِمْ وثقتهم بمواعيدها وَتَفَلُّتِها عنهم، فَإِنَّ مِنْ طبعها الْهَرَبَ مِمَّنْ طلبها، والطَّلَبُ لمن هَرَبَ منها [1] أهـ.

فالكل يفنى ولا يبقى إلا الواحد الماجد {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: ٨٨].

الْمَوْتُ لاَ شَكَّ آتٍ فَاسْتَعِدَّ لَهُ ::: إِنَّ اللَّبِيبَ بِذِكْرِ الْمَوْتِ مَشْغُولُ
فَكَيْفَ يَلْهُو بِعَيْشٍ أَوْ يُلَذُّ بِهِ ::: مِنَ التُّرَابِ عَلَى عَيْنَيْهِ مَجْعُولُ

* * *

دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ فَاتَ فِي زَمَنِ الصِّبَا ::: وَاذْكُرْ ذُنُوبَكَ وَابْكِهَا يا مُذْنِبُ
وَاخْشَ مُنَاقَشَةَ الْحِسَابِ فَإِنَّهُ ::: لاَ بُدَّ يُحْصَى مَا جَنَيْتَ وَيُكْتَبُ
لَمْ يَنْسَهُ الْمَكَانِ حِينَ نَسِيَتَهُ ::: بَلْ أَثْبَتَاهُ وَ أَنْتَ لاَهٍ تَلْعَبُ
وَالرُّوحُ فِيكَ وَدِيعَةٌ أَوْدَعْتَهَا ::: سَتَرُدُّهَا بِالرَّغْمِ مِنْكَ وَتُسْلَبُ
وَغُرُورُ دُنْيَاكَ الَّتِي تَسْعَى لَهَا ::: دَارٌ حَقِيقَتُهَا مَتَاعٌ يَذْهَبُ
وَاللَّيْلُ فَاعْلَمْ وَالنَّهَارُ كِلاَهُمَا ::: أَنْفَاسُنَا فِيهَا تُعَدُّ وَتُحْسَبُ
وَجَمِيعُ مَا حَصَّلْتَهُ وَجَمَعْتَهُ ::: حَقًّا يَقِينًا بَعْدَ مَوْتِكَ يَنْهَبُ
تَبًّا لِدَارٍ لاَ يَدُومُ نَعِيمُهَا ::: وَمَشِيدُهَا عَمَّا قَلِيلٍ يُخْرَبُ

* * *

(١) صحيح تفسير ابن كثير: (٢/٣٥٩-٣٦٠).

وَطَوْقُ النَّجَاةِ أَنْ تَلُوذَ بِرَبِّكَ فِي كُلِّ حِينٍ

فإذا نفر منك الناس الجأ إليه، لأنه أقربُ إليك من حبل الوريد، ولا تجزع يا مُفرِّط في الذنب، فهو المجيب لكل مَنْ داعاهُ فهو القريب عند ابتعاد الخلائق، وهو الغني عند بخل الأغنياء، وهو القويُّ عند ضعف الأقوياء، وهو العزيز عند ذُلّ السلاطين، وهو الْحَيِيُّ السَّتِّيرُ عند جفاف الْوَجْهِ من الحياء، وهو المعطي عند افتقار الناس، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾} [البقرة: ١٨٦].

ولأحمد عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي» (١).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيَسْتَحْيِي أَنْ يَبْسُطَ الْعَبْدُ إِلَيْه يَدَيْه يَسْأَلُهُ فِيهِمَا خَيْرًا فَيَرُدَّهُمَا خَائِبَتَيْنِ» (٢).

وللحاكم عن أنس ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ رَحِيمٌ، حَيِيٌّ، كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهُ ثُمَّ لاَ يَضَعُ فِيهِمَا خَيْرًا» (٣).

وأخرج مسلم وغيره من حديث أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عِنَاقِ رَاحِلَتِه» (٤).

---

(١) صحيح: أخرجه الإمام أحمد (٣/٢١٠).
(٢) إسناده حسن: وقد أخرجه الترمذي (٩/٥٤٤).
(٣) الترغيب للمنذري برقم: (٢/٢٧٣)، وصحيح الجامع برقم: (١٧٦٨-٧٨٢).
(٤) أخرجه مسلم (٢٧٠٤)، وأبو داود (١٥٢٦)، والنسائي في (المجتبى) (٧٦٨٠)، وفي (الكبرى) (٧٦٨٠)، وأحمد (١٩١٠٢)، والبزار (٢٩٩٤)، واللالكائي في (اعتقاد أهل السنة) (٦٨٤) من حديث أبي موسى ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ إذا أصابه مكروهٌ، أو شدةٌ، أو كربٌ لاَذَ بربه، فاستغاث به، طالبًا العونَ والتَّأيِّدَ، كما أخرج الترمذي وغيرهُ من حديث أنس ﷺ أنه قال: كان رسول الله ﷺ إِذَا كَرَبَهُ أَمْرٌ قَالَ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ» (١).

وقد دعا الله جميع مَنْ عَصَاهُ وأسرفوا في المعاصي أن يرجعوا إليه ويحتموا بجنابه، ويلوذوا برحابه، ولا يقنطوا من رحمته مهما أن بلغ بهم الإسراف في المعاصي، فَيَسَجِدُونَهُ غفروًا رحيمًا، كما جاء في قوله تعالى: {قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾} [الزمر: ٥٣].

وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أن الله دعا لمغفرة مَنْ زَعَمَ أَنَ المسيحَ هُوَ اللهُ، ومن زعم أن المسيح هو ابْنُ الله، ومن زعم أن عزيرًا بْنُ الله، ومن زعم أن الله فَقيرٌ، ومن زعم أن يد اللهِ مَغْلُولَةٌ، ومن زعم أن الله ثَالِثُ ثلاثةٍ، فيقول لهؤلاء: { أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾} [المائدة: ٧٤].

ثم دعا إلى التوبة مَنْ هُوَ أعظمُ قَوْلاً من هؤلاء، مَنْ قال: {أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾} [النازعات: ٢٤]. وقال: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى } [القصص: ٣٨].

قال ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما مَنْ آيَسَ عبادَ اللهِ من التوبة بعد هذا فقد جَحَدَ كِتَابَ اللهِ تعالى، ولكن لا يقدرُ العبدُ أن يتوبَ حتى يتُوبَ اللهُ عليهِ، وَعَنِ ابْنِ مسعودٍ قال: إِنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ في كتاب

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٤) من حديث أنس ﷺ، والحديث حسن لغيره، وأخرجه الحاكم (١٨٧٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (١٠٢٣١) من حديث ابن مسعود ﷺ.

الله: {ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ} [البقرة: ٢٥٥].

وإن أَجْمَعَ آيةٍ في القرآن بِخيْرٍ وَشَرٍّ: {إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ} [النحل: ٩٠].

وإن أكثر آيةٍ في القرآن فَرَجًا: {قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ} [الزمر: ٥٣].

وإن أَشَدَّ آيةٍ في كتابه تعالى: {وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ} [الطلاق: ٢ - ٣].

وروى الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي عن أَبُوبٍ الأَنْصَارِيِّ ﷺ أنه قالَ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: قَدْ كُنْتُ كَتَمْتُ مِنْكُمْ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَوْلاَ أَنَكُمْ تُذْنِبُونَ، لَخَلَقَ اللهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ» (١) أهـ.

لذا كانت الصحابة تذهب إلى ربها بقلوبها وخشوعها ودموعها، مُفْتَقِرَةً مُتَذَلِّلَةً إليه، تأنس في جواره، مُحْتَمِيةً في رحابه، ترتاح عند برد الدموع في دعائه، لا يُقلقها عطشٌ ولا جوعٌ، وَلَوْ مُزِّقَتِ الأحشاءُ والضلوع، فقد كان في وجه عمر ﷺ خَطَّانِ أَسودانِ مثل الشراك من البكاء، وكان يَمُرُّ بالآية من ورده بالليل فيبكي حتى يسقط ويبقى في البيت حتى يعادُ للمرض، لقد استلذَّ ﷺ بشراب الدموع، ولولا صحو السهر والجوع ما بات عند الجبل هلالُ (يا سارية) (٢) أهـ.

ولله در القائل:

(١) صحيح تفسير ابن كثير: (٤/٥٣-٥٤) والحديث رواه مسلم برقم: (٢٧٤٨)، والسلسلة الصحيحة برقم: (١٩٦٣)، وصحيح الجامع برقم: (٥٣٢٩).
(٢) التبصرة: (١/٤٢١-٤٢٣).

فَمَنْ يُجَارِي أَبَاَ حَفْــصٍ وَسِــيرَتَهُ ::: أَوَ مَنْ يُحَاوِلُ لِلْفَارُوقِ تَشْبِيهًا [1]

وكان عثمان بن عفان ﷺ يُوتِرُ بركعةٍ واحدةٍ يقرأ فيها القرآن كُلَّهُ، قال عبد الرحمن بن عثمان التيمي، قلت: لأغلبن الليلة على المقام، فسبقت إليه فبينا أنا قائم أصلي إذ وضع رَجُلٌ يدهُ على ظهري فنظرت فإذا هو عثمان بن عفان وهو خليفة، فتنحيت عنه فقام، فما بَرِحَ قائمًا حتى فرغ من القرآن في ركعة لم يزد عليها، فلما انصرف قلت: يا أمير المؤمنين إنما صليت ركعة؟ قال: أجل هي وتري [2].

وقال سليمان بن يسار: قام عثمان بن عفان ﷺ بعد العشاء فقرأ القرآن في ركعة، لم يُصَلِّ قبلها ولا بعدها [3] أهـ.

عَلِيُّ بْـنُ أبي طَالـب وقد وصفه ضرار بن صخرة الكناني حين طلب منه ذلك أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ﷺ، فقال في وصفه: (يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته، وأشهد بالله لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، يميل في محرابه قابضًا على لحيته، يَتَمَلْمَلُ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني أسمعهُ الآن وهو يقول: يا ربنا يا ربنا: يتضرع إليه، ثم يقول للدنيا - إليَّ تغررت، إليَّ تشوقت، هيات هيهات، غُرِّي غيري، قد أَبَنْتُكِ ثلاثًا، فعمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك يسير، آهٍ آهٍ من قلةِ الزَّادِ وبعد السفر ووحشة

(١) سادات المتهجدين، د. سيد حسين العفاني، ص: ١٧.
(٢) خبر صحيح: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) (١٢٧٦)، وعبد الرزاق في مصنفه (٢٤/٣)، وابن سعد في (الطبقات) (٧٥/٣)، والبيهقي في (سننه) (٢٤/٣-٢٥)، وابن عساكر (٢٢٥-٢٢٦)، وأبو نعيم في (الحلية) (٣٦/١).
(٣) المصدر السابق: ص: ٢٠.

الطريق)، فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها وجعل ينشفها بِكُمِّهِ وقد اختنق القوم بالبكاء [1] أهـ.

وأما عباد بن بشر ﷺ فترى الْعَجَبَ الْعُجَابَ من شَغَفِ قيامه بالليل، لا يمنعه من ذلك جراحٍ كادت تُودِي بحياته: عن جابر بن عبد الله قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع، فأصاب رجل امرأة رجل من المشركين، فحلف أن لا أنتهي حتى أهريق دَمًا في أصحاب محمد، فخرج يتبع أثر النبي ﷺ فنزل النبي ﷺ فقال: «هل رجل يكلأ»، أي: يحرسنا، فانتدب رجل من المهاجرين وهو (عَمَّارُ بْنُ يَاسِر)، ورجل من الأنصار وهو (عَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ) فقال: «كونا بفم الشعب»، فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب اضطجع المهاجري، وقام الأنصاري فصلى، فأتى الرجل، فلما رأى شخصه عرف أنه ربيئة القوم، أي: عين القوم وحارسهم، فرماه بسهم فوضعه فيه، فنزعه حتى رماه بثلاثة أسهم، ثم ركع وسجد، ثم انتبه صاحبه، فلما عرف أنهم قد نذروا به هرب، فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري، قال: سبحان الله أَلاَّ أنبهتني أول ما رمى؟ قال: كنت في سورة أقرأها فلم أحب أن أقطعها، نعم يا سيد الأنصار ما يمنعك من مناجاة ربك والوقوف بين يديه وأنت تُسْلِمُ وجهك نحو قبلته رشق السهام وتقطيع الأوصال.

عَذَابُهُ فِيكَ عَذْبٌ ::: وَبُعْدُهُ فِيكَ قُرْبُ
وَأَنْتَ عِنْدِي كَرُوحِي ::: بَلْ أَنْتَ مِنْهَا أَحَبُّ
حَسْبِي مِنَ الْحُبِّ أَنِّي ::: لِمَا تُحِبُّ أَحَبُّ [2]

(١) المصدر السابق: ص: ٢٠.
(٢) أ. هـ المصدر السابق، ص: ٣٩-٤٠.

وروى البخاري من حديث عائشة ﵂ أن النبي ﷺ سمع صوت عباد بن بشر، فقال: «اللَّهُمَّ ارْحَمْ عَبَّادًا» [1].

وعن أنس ﵁ أن أُسَيْدَ بن حضير، وعبَّاد ابن بشر كانا عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، فخرجا من عنده، فأضاءت عصا أحدهما، فكانا يمشيان بضوئها، فلما افترقا أضاءت عصا هذا وعصا هذا [2] أهـ.

وأما سعيد بن عامر الجمحي ﵁، فقد استعمله عمر بن الخطاب على حمص، فلما قَدِمَ عمر ﵁ حمص قال: يا أهل حمص، كيف وجدتم عاملكم؟ فشكوا إليه، قال: نشكوا أربعًا - وذكروا من بينها أنه لا يجيب أحدًا بليل، فجمع عمر بينهم وبينه وقال: اللهم لا تقيل رأي فيه اليوم.

ما تشكون منه؟

قالوا: لا يجيب أحدًا بليل.

قال: ما تقول؟

قال: (إن كنت أكره ذكره... إني جعلت النهار لهم وجعلت الليل لله ﷻ).

وأجاب عن بقية شكاياتهم، فقال عمر:

(الحمد لله الذي لم يفيل فراستي) [3] أهـ.

وَلَمَّا قدم عمر حمص أمرهم أن يكتبوا له فقراءهم، فرفع الكتاب،

(١) رواه البخاري (٢٦٥٥) كتاب الشهادات.
(٢) أسد الغابة، لابن الأثير: (١١٢/٣).
(٣) سادات المتهجدين، د. سيد حسين العفاني، ص: ٤٤، مأخوذ من حلية الأولياء: (٢٤٦/١).

فإذا فيه سعيد بن عامر، قال: من سعيد بن عامر؟

قالوا: يا أمير المؤمنين! أميرنا.

قال: وأميركم فقير؟

قالوا: نعم، فعجب، فقال: كيف يكون أميركم فقيرًا؟! أين عطاؤه؟ أين رزقه؟

قالوا: يا أمير المؤمنين: لا يمسك شيئًا.

قال: فبكى عمر، ثم عَمِدَ إلى ألف دينار فَصَرَّهَا وبعث بها إليه، وقال: أقرئوه مني السلام، وقولوا له: بعث بها إليك أمير المؤمنين، فاستعن بها على حاجتك.

قال: فجاء بها الرسول، فنظر إليها، فإذا هي دنانير، فجعل يسترجع، فقالت له امرأته: ما شأنك؟

أصيب أمير المؤمنين؟ قال: أعظم؟

قالت: فظهرت آية؟ قال: أعظم من ذلك.

قالت: فأمر الساعة؟ قال: بل أعظم من ذلك.

قالت: فما شأنك؟ قال: الدنيا أتتني، الفتنة دخلت عَلَيَّ.

قالت: فاصنع فيها ما شأت.

قال لها: أعندك عون؟ قالت: نعم، فَصَرَّ الدنانير فيها صرر، ثم جعلها في مخلاة، ثم بات يصلي حتى أصبح، ثم اعترض بها جيشًا من جيوش المسلمين فأمضاها كلها، فقالت له امرأته: لو كنت حبست

منها شيئًا نستعين به [1] أهـ.

ولما أمره عمر بالقدوم عليه، فلم يَرَ مَعَهُ إلا عُكَّازًا وقدحًا، فقال له عمر: ليس معك إلا ما أرى؟

فقال له سعيد: وما أكثر من هذا؟

عكاز أحمل عليه زادي، وقدح آكل فيه.

فقال له عمر: أبك لمم؟ قال: لا.

قال: فما غشية بلغني أنها تصيبك؟

قال: حضرت خبيب بن عدي حين صلب، فدعا على قريش وأنا فيهم، فربما ذكرت لك، فأجد فترة حتى يغشى عَلَيَّ، فقال له عمر: ارجع إلى عملك، فأبى، وناشده إلا أعفاه [2] أهـ.

فهذا العابد الزاهد كان يؤثر رؤية وجه الله تعالى على خَيْرَيِ الدنيا وما فيها، وكان يؤثر نساء أهل الجنة على خَيْرَيِ الدنيا وما فيها، لذا وجب تحقيق قول (لا إله إلا الله) في القلب قبل الفم واللسان، فمن أدركها حقًّا وَوَعِيَهَا، وَعَمِلَ بمقتضاها كانت له عَوْنًا في الدنيا، وسعادةً ما بعدها سعادةً في الآخرة.

قال ابن القيم رحمه الله: ولهذا حَرَّمَ على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة، كما روى البزار عن أبي سعيد، أن رسول اللهِ ﷺ قال: «**مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الْجَنَّةَ**» [3].

(١) أسد الغابة لابن الأثير: (٣٤٨/٢).
(٢) المصدر السابق: (٣٤٧/٢).
(٣) السلسلة الصحيح برقم: (٢٣٥٥)، وصحيح الجامع برقم: (٦٤٣٣).

ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها، كما جاء في قوله تعالى: {وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾} [المعارج: ٣٣].

فيكون قائمًا بشهاداته في ظاهره وباطنه في قلبه وقالبه، فإن من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت، ومنهم من تكون مضطجعة، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب، وهي في القلب بمنزلة الروح في البدن، فروح ميتة، وروح مريضة إلى الموت أقرب، وروح إلى الحياة أقرب، والروح الصحيحية هي التي تقوم بمصالح البدن، كما جاء في سنن النسائي، وابن ماجه، وصحيح ابن حبان من حديث طلحة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً، لاَ يَقُولُهَا عَبْدٌ عِنْدَ مَوْتِهِ، إِلاَّ كَانَتْ لَهُ نُورًا لِصَحِيفَتِهِ، وَإِنَّ جَسَدُه وَرُوحَهُ لَيَجِدَانِ لَهَا رَوْحًا عِنْدَ الْمَوْتِ» (١).

فحياة الروح بحياة هذه الكلمة فيها، كما أن حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه في الجنة تتقلب في جنة المأوى وعيشه أطيب عيش، كما جاء في قوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾} [النازعات: ٤٠ - ٤٢].

فالجنة مأواه يوم اللقاء؟ وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضى به وعنه مأوى روحه في هذه الدار، فمن كانت هذه الجنة مأواه هاهنا كانت جنة الخلد مأواه يوم

(١) أحكام الجنائز للألباني برقم: (٣٤)، وصحيح الجامع برقم: (٢٤٩٢-١١٦٣).

المعاد، فهو لتلك الجنة أَشَدُّ حِرْمانًا [1] أهـ.

فالصادقون السائرون إلى الله والدار الآخرة قسمان: قسم صرفوا ما فضل من أوقاتهم بعد الفرائض إلى النوافل البدنية وجعلوها دأبهم من غير حرص منهم على تحقيق أعمال القلوب ومنازلها وأحكامها، وإن لم يكونوا خالين من أصلها ولكن هممهم مصروفة إلى الاستكثار من الأعمال.

* وقسم صرفوا ما فضل من الفرائض والسنن إلى الاهتمام بصلاح قلوبهم وعكوفها على الله وحده والجمعية عليه، وحفظ والخواطر والإرادات معه، وجعلوا قوة تعبدهم بأعمال القلوب من تصحيح المحبة والخوف والرجاء والتوكل والإنابة ورأوا أن أيسر نصيب من الواردات التي ترد على قلوبهم من الله أحب إليهم من كثير من التطوعات البدنية، فإذا حصل لأحدهم جمعية وارد أنس، أو حب، أو اشتياق، أو انكسار وذل [2] أهـ.

فأشرف الناس نفسًا وأعلاهم همةً وأرفعهم قدرًا من لذته في معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والتودد إليه بما يحبه ويرضاه، فلذته في إقباله عليه وعكوف همته عليه، وأكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح، ولذة البدن، فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة، ولا يقطع عليه لذة المعرفة والأنس بربه، فهذا ممن قال تعالى فيه: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ }

(١) الداء والدواء لابن القيم: ص: ٢١٢-٢١٣.
(٢) الفوائد لابن القيم، ص: ١٩٦.

[الأعراف: ٣٢] [(١)]. أهـ.

فمن يملك القلوب إلا هو، ومن يملك الضُّرَّ والنفع والخلق والأمر والاستعاذة إلا علام الغيوب، لأن الاستعاذة لا تتم إلا به ومنه كما جاء في الحديث المتفق عليه من حديث البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَى مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ» [(٢)].

قال ابن القيم: فهو الذي ينجي من نفسه بنفسه، ويعيذ من نفسه بنفسه، وكذلك الفرار، يَفِرُّ عبده منه إليه، فالملك كله له، والحمد كله له، والشفاعة كلها له، والخير كله في يديه، والأمر كله له، كما جاء في قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ} [آل عمران: ١٥٤].

فلا إله غيره، ولا رب سواه، وهذا تحقيق تفرده بالربوبية والألوهية: {قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ} [الزمر: ٣٨].

{وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾} [الأنعام: ١٧].

{مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾} [فاطر: ٢].

فاستعذ به منه، وفر منه إليه، واجعل لجوأك منه إليه، فالأمر كله

---

(١) المصدر السابق، ص: ٢٠٦.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٥/١١/فتح)، ومسلم (٤/ذكر ودعاء ٢٠٨١-٥٦)، وأبو داود (٥٠٤٦/٤)، والترمذي (٣٥٧٤/٥)، وابن ماجه (٣٨٧٦/٢)، وأحمد في مسنده، (٢٨٥/٤، ٢٩٢، ٣٠٠، ٢٩٩)، من حديث البراء بن عازب ﷺ.

له، لا يملك أحد معه منه شيئًا، فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا تتحرك ذرة فوقها إلا بإذنه، ولا يضر سم ولا سحر ولا شيطان ولا حيوان ولا غيره إلا بإذنه ومشيئته. يصيب بذلك من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، فأعرف الخلق به وأقواهم بتوحيده من قال في دعائه: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ) فليس للخلق معاذ سواه، ولا مستعاذ منه إلا هو ربه وخالقه ومليكه وتحت قهره وسلطانه، ثم يختم الدعاء بقوله: (لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ) اعترافًا بأن شأنه وعظمته ونعوت كماله وصفاته أعظمُ وَأَجَلُّ من أن يحصيها أحدٌ من الخلق [1] أهـ.

فَاسْتَنْجِدْ به، وَلا تَلُذْ بغيره.

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُؤَمِّلُهُ ::: وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ فِيمَا أُحَاذِرُهُ
وَمَنْ تَوَهَّمْتُ أَنَّ الْبَحْرَ رَاحَتُهُ ::: جُودًا وَأَنَّ عَطَايَاهُ جَوَاهِرُهُ
لاَ يَجْبُرُ النَّاسَ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ ::: وَلاَ يَهِيضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ

* * *

(١) أ. هـ شفاء العليل لابن القيم: ٥٠٧.

تَعَجُّبٌ!!! وَاسْتِفْهَامٌ؟؟؟

كيف يعمل العبد عند ملك الملوك، وهذا الملك ينفق عليه من خالص ماله، فيتحمل قوته وقوت أولاده، ليعيش عيشةً كريمةً يُصَانُ فيها وجهه، ثم يأتي بتجرءٍ وتبجحٍ ليحوِّلَ وَلاَءَهُ لغير هذا الملك، أيليق هذا؟

أهذا من العدل والإنصاف؟

ولله المثل الأعلى - فكيف يليق للعبد أن يعمل لغير الله، وأن يخلص لغير الله، وأن يحب لغير الله؟

فقد روى الإمام أحمد، والترمذي من حديث الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهِ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا ﷺ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ عِيسَى عليه السلام: إِنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ وَإِمَّا أَنْ آمُرَهُمْ، فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَامْتَلَأَ الْمَسْجِدُ وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ، أَوَّلُهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّ مَثَلَ مَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي، وَهَذَا عَمَلِي فَاعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ!، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ؟.. الحديث» [1].

(١) صحيح رواه الترمذي في كتاب الأمثال، باب: ما جاء في الصلاة والصيام، والصدقة، حديث (٢٨٦٣)، وأحمد في مسنده (٣٤٤/٥)، حديث (٢٢٩٦١)، وابن حبان في

هذا الحديث ذكره رسول الله ﷺ وضرب فيه المثل وفرق فيه بين الموحد والمشرك، فالموحد كمن عمل لسيده في داره وأدى لسيده ما استعمله فيه، والمشرك كمن استعمله سيده في داره فكان يعمل ويؤدي خراجه وعمله إلى غير سيده، فهكذا المشرك يعمل لغير الله تعالى في دار الله تعالى ويتقرب إلى عدو الله بنعم الله تعالى، ومعلوم أن العبد من بني آدم لو كان مملوكه كذلك لكان أمقت المماليك عنده، وكان أشد شيء غضبًا عليه وطردًا له وإبعادًا، وهو مخلوق مثله كلاهما في نعمة غيرهما، فكيف برب العالمين الذي ما بالعبد من نعمة فمنه وحده لا شريك له، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يصرف السيئات إلا هو، وهو وحده المنفرد بخلق عبده ورحمته وتدبيره ورزقه ومعافاته وقضاء حوائجه، فكيف يليق به مع هذا أن يعدل به غيره في الحب والخوف، والرجاء والحلف والنذر والمعاملة، فيحب غيره كما يحبه أو أكثر، ويخاف غيره ويرجوه كما يخافه أو أكثر [1] أهـ.

* * *

صحيحه (١٤/١٢٤-١٢٥) حديث (٦٢٣٣)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي، وصحيح الجامع (١٧٢٤)، وصحيح الترغيب (١٤٩٨).

(١) الوابل الصيب لابن القيم، ص: ١٨.

مُعَاتَبَةٌ، وَعِتَابٌ

ألم يحن الوقت لمثلي ومثل غيري المفرطين في ذنوبهم أن يذهبوا إلى الله بأفئدتهم وأسماعهم وأبصارهم، بل يُقبلوا إليه بالكُلِّيَةِ، وليعلموا علم اليقين أنَّ مَنْ جَاءهُ يمشي أتاهُ هرولةً.

فقد روى مسلم والنسائي من حديث أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطَ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا» (١).

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ أَخْطأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ السَّمَاءَ، ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ» (٢).

وجاء في الحديث المتفق عليه من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللهُ ﷻ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللهِ للهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ» (٣).

وَعَنْ شُرَيْحِ ابْنِ الحَارِثِ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: قَالَ اللَّهُ ﷻ: «يَا ابْنَ آدَمَ، قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ، وَامْشِ إِلَيَّ أُهَرْوِلُ إِلَيْكَ» (٤).

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥٩)، والنسائي (١١٨/٥)، والترغيب للمنذري برقم: (٤٥٧٢).
(٢) حسن: رواه ابن ماجه (٤٢٤٨)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٢٤)، والترغيب للمنذري برقم: (٤٥٧٦).
(٣) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، والترغيب للمنذري برقم: (٤٦٠٠).
(٤) صحيح: رواه أحمد (٤٧٨/٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٦/١٠) رجال الصحيح، غير شريح بن الحارث، وهو ثقة، والترغيب للمنذري برقم: (٤٦٠٢).

واعلم عبد الله أنه لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم أقبلت عليه بوجهك رَافِعًا شِعَارَ التوبةِ والندمِ لَتَابَ الله عليك ولا يُبَالِي، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، فَقَالَ: يَارَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا، فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، فَغَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا آخَرَ، وَرُبَّمَا قَالَ: ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، قَالَ رَبُّهُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، فَغَفَرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا آخَرَ، وَرُبَّمَا قَالَ: ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، فَقَالَ: يَا رَبِّ، إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، فَقَالَ رَبُّهُ: غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ» [1].

فَتُبْ عبد الله تَوْبَةً نَصُوحًا، واندم على ما فاتك، لأن الندم توبة، وَلاَ تُسَوِّفَ في ذلك، لأن الموت يأتي بَغْتَةً، فعن أَبي حُمَيْدٍ الطَّوِيل قَالَ: قُلْتُ لأَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ أَقَالَ النبي ﷺ: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ» قَالَ: نَعَمْ [2].

وهذا مالك بن دينار من كبار التابعين يحكي توبته فيقول: بدأت حياتي فاسقًا فاجرًا ظالمًا، وكنت أعمل شرطيًّا أضرب الناس وآخذ منهم الحقوق وأشرب الخمر حتى جاءت ليلة، فقلت لنفسي ليتني أتزوج، فتزوجت فأنجبت طفلة سميتها (فاطمة) وكلما كبرت فاطمة قَلَّ الشَّرُّ في قلبي وكثر الخير في قلبي، فلما بلغت ثلاث سنوات ماتت، فانقلبت أسوأ مما كنت، ولم يكن عندي من صبر المؤمنين مَا

(١) رواه البخاري ومسلم وجاء في الترغيب للمنذري برقم: (٤٥٨٢)، وصحيح الجامع برقم: (٢١٠٣-٩٤٧).

(٢) صحيح: رواه ابن حبان في صحيحه برقم: (٦١٣)، وجاء في الترغيب للمنذري برقم: (٤٥٩).

يُصَبِّرنِي، فعدت كأسوأ ما يكون، فقلت لنفسي لأشربن اليوم شربًا أسكر منه سكرةً ما سكرت مثلها قط، فشربت وشربت وشربت حتى سقطت مغشيًّا عَلَيَّ، فرأيتني يوم القيامة وقد جمعت الخلائق وأظلمت الشمس وَسُجِّرَتِ البحارُ، وانشقتِ الأرضُ، فخرج الناس منها كالفراش المبثوث، وسارت الشمس تدنو من رؤوسنا، فرأيتني أغرق في عرقي من شدة ذنوبي، ثم سمعت المنادي ينادي: فلان ابن فلان: هَلُمَّ لِلْعَرْضِ على الجبار، فأرى فلانًا أعرفه من شِدَّةِ رُعْبِهِ، فتأتي الملائكة فتأخذه حتى جاء الدور عَلَيَّ فسمعت اسمي فوجدت الخلائق تختفي فليس في الأرض غيري، ثم رأيت ثعبانًا عظيمًا سميكًا يفتح فَاهَهُ، ويجري خلفي يريد أن يلتهمني، فجريت والثعبان خلفي، فرأيت رجلاً ضعيفًا أمامي، فقلت له: أنقذني من هذا الثعبان، فقال لي: أنا ضعيف، ولكن اجري في هذا الاتجاه، فجريت والثعبان خلفي، فرأيت النار أمامي، فقلت: أنجو من الثعبان فأسقط في النار فعدت مُسْرِعًا والثعبان خلفي يريد أن يلتهمني، فعدت إلى الرجل العجوز، وقلت: أدركني، فبكى رأفة بحالي، وقال لي: أنا ضعيف لا أستطيع أن أنقذك، ولكن اجري في اتجاه هذا الجبل، فجريت والثعبان يكاد أن يقتلني، فرأيت الأطفال يصيحون: يا فاطمة أدركي أباك، فجاءت فاطمة فعرفتها والثعبان سيأكلني، فأخذتني بيمينها ودفعت الثعبان بشمالها ومضى، ثم جلست في حجري كما كانت تجلس في الدنيا وأنا أرتعد، وقالت لي يا أبت: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ} [الحديد: ١٦].

فقلت يا فاطمة: ما هذا الثعبان؟

فقالت: هذا عملك السَّيِّئُ أنت سَمَّنْتَهُ حتى كاد أن يقتلك، والشيخ

العجوز: هذا عملك الصالح أضعفته، فما عاد يستطيع أن ينقذك حتى بكى رَأْفَةً بحالك، يا أبت: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ} [الحديد: ١٦].

فاستيقظت من نومي أصرخ قائلاً: قد آن يا رب، فاغتسلت وخرجت إلى المسجد أبغي صلاة الصبح، فأدركت الإمام في صلاة الصبح يقرأ نفس الآية: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ} [الحديد: ١٦].

ثم يقول: أيها العبد العاصي عُدْ إلى مَوْلاكْ... أيها العبد الهاربُ عُدْ إلى مَوْلاكْ... أيها العبد الغافل عُدْ إلى مَوْلاكْ... مَوْلاكَ يناديك كل يوم بالليل والنهار يقول لك: من تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت إليه بَاعًا، ومن أتاني يمشي أتيته مُهَرْوِلاً [1] أهـ.

وفي مدينة الإسكندرية كانت هناك سيدةٌ صالحةٌ طائعةٌ لله ﷻ، وكانت تسكن أمامها سيدة متبرجة بعيدة جدًّا عن الله، ولكن المرأة الصالحة لم تقطع علاقتها بها، وفي إحدى المَّرات طلبت المرأة المتبرجة من السيدة الصالحة أن تذهب معها لشراء بدلة جينز، فوافقت السيدة ولكن بشرط أن تأتي معها إلى درسٍ من دروس الدِّينِ، ثم تذهب معها لشراء ما تطلبه، فوافقت وذهبت إلى الدرس وكان المتحدث يتحدث عن التوبة، فانتهى الدرس وإذا بالفتاة المتبرجة تبكي بكاءً شديدًا، وتقول بأعلى صوتها: تبت يا رب.. ارحمني يا رب.. فهذه توبة ترقرق لها القلوب، فقالوا: كفاك بكاءً هَيَّا، فقالت لهم: كيف أنزل وأنا بهذه الملابس؟ كيف أخرج إليه؟

(١) يا باغي الجنة قف مع نفسك للمؤلف، ص: (٧٢-٧٣).

وكيف أقابله؟

فأتوا إليها بعباءة وعندما خرجت من المسجد صدمتها سيارةٌ فماتت، انظر إلى رحمة الله عندما يحسن الله خاتمته، ثم انظر إلى التوبة كيف نَوَّرَتْ حُسْنُ الخاتمة أَعْمَالُهَا؟ [1] أهـ.

أَنَا إِنْ بَكَيْتَ فَلَنْ أُلاَمَ عَلَى الْبُكَا ::: فَلَطَالَمَا اسْتَغرَقْتُ فِي الْعِصْيانِ
يَارَبِّ عَبْدُكَ مِنْ عَذَابكَ مُشْفِقٌ ::: بكَ مُسْتَجيرٌ مِنْ لَظَى النِّيرَانِ
فَارْحَمْ تَضَرُّعُهُ إِلَيْكَ وَحُزْنَهُ ::: وَامْنُنْ عَلَيْهِ الْيَومَ بِالغُفْرَانِ

* * *

أَيَا مَنْ لَيْسَ لِي مِنْهُ مُجيرُ ::: بعَفْوكَ مِنْ عَذَابكَ أَسْتَجيرُ
أَنَا الْعَبْدُ الْمُقِرُّ بكُلِّ ذَنْبٍ ::: وَأَنْتَ السَّيِّدُ الْمَوَلَى الْغَفُورُ
فإِنْ عَذَّبْتَني فَبِسُوءِ فِعْلِي ::: وَإِنْ تَغْفِرْ فَأَنْتَ بِهِ جَدِيرُ
أَفِرُّ إِلَيْكَ مِنْكَ وَأَيْنَ إِلاَّ ::: إِلَيْكَ يَفِرُّ مِنْكَ الْمُسْتَجِيرُ

* * *

أَنَا الْعَبْدُ الَّذِي كَسَبَ الذُّنُوبَا ::: وَصَدَّتْهُ الْأَمَانِي أَنْ يَتُوبَا
أَنَا الْعَبْدُ الَّذِي أَضْحَى حَزِينَا ::: عَلَى زَلاَّتِهِ قَلَقًا كَئِيبًا
أَنَا الْعَبْدُ الَّذِي سُطِرَتْ عَلَيْهِ ::: صَحَائِفُ لَمْ يَخَفْ فِيهَا الرَّقِيبَا
أَنَا الْعَبْدُ الْمُسِيءُ عَصَيْتُ سِرًّا ::: فَمَالِي الآنَ لاَ أُبْدِي النَّحِيبَا
أَنَا الْعَبْدُ الْمُفَرِّطُ ضَاعَ عُمْرِي ::: فَلَمْ أَرْعَ الشَّبِيبَةَ وَالْمَشِيبَا
أَنَا الْعَبْدُ الْغَرِيقُ بلُجِّ بَحْرٍ ::: أَصِيحُ لَرُبَّمَا أَلْقَى مُجِيبَا
أَنَا الْعَبْدُ السَّقِيمُ مِنَ الْخَطَايَا ::: وَقَدْ أَقْبَلْتُ أَلْتَمِسُ الطَّبِيبَا
أَنَا الْعَبْدُ الْمُخَلَّفُ عَنْ أُنَاسٍ ::: حَوَوْا مِنْ كُلِّ مَعْرُوفٍ نَصِيبًا
أَنَا الْعَبْدُ الشَّرِيدُ ظَلَمْتُ نَفْسِي ::: وَقَدْ وَافَيْتُ بَابَكُمُ مُنِيبَا
أَنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ مَدَدْتُ كَفِّي ::: إِلَيْكُمْ فَادْفَعُوا عَنِّي الْخُطُوبَا
أَنَا الْغَدَّارُ كَمْ عَاهَدْتُ عَهْدًا ::: وَكُنْتُ عَلَى الْوَفَاءِ بِهِ كَذُوبَا

(١) المصدر السابق ص: (٧٣-٧٤).

أَنَا الْمَقْطُوعَ فَـارْحَمْنِي وَصِـلْنِي ::: وَيَسِّرْ مِنْـكَ لِـي فَرَجًـا قَرِيبَـا
أَنَا الْمُضطَرُّ أَرْجُـو مِنْـكَ عَفْـوًا ::: وَمَنْ يَرْجُو رِضَـاكَ فَلَـنْ يَخِيبَـا
فَيَا أَسَـفِي عَلَـى عُمْـرٍ تَقَضَّـى ::: وَلَـمْ أَكْسِـبْ بِـهِ إِلاَّ الـذُّنُوبَا
وَأَحْـذَرُ أَنْ يُعَـاجِلَنِي مَمَـاتٌ ::: يُحَيِّـرُ هَـوْلُ مَصْـرَعِهِ اللَّبِيبَـا
وَيَا حُزْنَاهُ مِنْ حَشْـرِي وَنَشْـرِي ::: بِيَـوْمٍ يَجْعَـلُ الْوِلْـدَانَ شِـيبَا
تَفَطَّـرَتِ السَّـمَاءُ بِـهِ وَمَـارَتْ ::: وَأَصْـبَحَتِ الْجِبَـالُ بِـهِ كَثِيبَـا
وَيَا خَجَلاَهُ مِـنْ قُـبْحِ اكْتِسَـابِي ::: إِذَا مَا أَبْدَتِ الصُّـحُفُ الْعُيُوبَـا

* * *

اللهم اجمع المسلمين على كلمةٍ سواءْ
اللهم بَيِّضْ وجوهنا عِنْدَ اللِّقَاءْ
اللهم لاَ تَرُدَّنَا يوم العرض
عليك خائبي الأمل والرجاءْ

* * *

اللهم زلزل أقدام كُلَّ من هتك عِرْضًا
اللهم زلزل أقدام كل من فَرَّق جَمْعًا
اللهم زلزل أقدام كل من شَتَّت شَمْلاً
إنك وَلِيُّ ذلك والقادر عليه
آمين. آمين، والحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد النبيِّ الأمِّيِّ وعلى آله وصحبه وسلم.

أَلَّفَـهُ
أبــو أحمـد
كمال أحمد عبد السلام
وكان الفراغ منه يوم الاثنين
١٠ رجب ١٤٣٤هـ/ ٢٠ مايو ٢٠١٣م

* * *

المصادر والمراجع

١- تفسير القرآن العظيم لابن كير، دار مصر للطباعة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

٢- صحيح تفسير ابن كثير، اختصره وخَرَّج أحاديثه/مصطفى ابن العدوي، - ط دار الفؤاد - دار ابن رجب - الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٣- تفسير محاسن التأويل للقاسمي - ط دار الحديث القاهرة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٤- فتح الباري بشرح صحيح البخاري - ط دار الحديث القاهرة ١٩٨٨م.

٥- صحيح مسلم بشرح النووي - ط دار الفجر للتراث - الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٦- سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني - ط مكتبة المعارف الرياض - ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

٧- صحيح الجامع للألباني - ط المكتب الإسلامي - بيروت - الطبعة الثانية - ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٨- شرح السنة للبغوي - ط دار الفكر - بيروت، لبنان ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

٩- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي - ط دار الحديث ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

١٠- البداية والنهاية لابن كثير - دار الحديث القاهرة - ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١١- الترغيب والترهيب للمنذري - ط دار الحديث ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

١٢- أسد الغابة لابن الأثير - مكتبة الصفا ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

١٣- منار السبيل على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ط - دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان - الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١٤- إحياء علوم الدين للغزالي - ط دار الغد العربي، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

١٥- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر - ط دار الغد العربي - ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

١٦- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم - ط دار الحديث ١٩٩١م.

١٧- الداء والدواء لابن القيم مكتبة الإيمان بالمنصورة بدون تاريخ.

١٨- الفوائد لابن القيم دار الريان للتراث - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

١٩- شفاء العليل لابن القيم - ط دار الحديث - القاهرة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.

٢٠- الوابل الصيب لابن القيم - دار كندة للإعلام والنشر جدة - الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٢١- أحداث النهاية للشيخ محمد حسان - مكتبة فياض ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

٢٢- الرحيم المختوم للمباركفوري - المكتبة التوفيقية الطبعة الحادية والعشرون ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

٢٣- سادات المتهجدين د. حسين العفاني - دار العفاني، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

٢٤- الوصايا المنبيرة للشيخ/ عبد العظيم بدوي - دار ابن رجب - الطبعة الثانية ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٢٥- المبتكرات في الخطب والمحاضرات للشيخ/ وحيد عبد السلام بالي - دار ابن رجب - ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٢٦- الحياء خلق الإسلام، محمد أحمد إسماعيل المقدم - دار العقيدة للتراث - الطبعة الثانية ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٢٧- يا باغي الجنة قف نفسك، كمال أحمد عبد السلام - دار البشير بطنطا ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

٢٨- موسوعة الأخلاق الإسلامية - سعد يوسف أبو عزيز - ط - المكتبة التوفيقية - القاهرة - بدون تاريخ.

٢٩- المعجم الوجيز - مجموعة من الأستاذة الجامعيين - طبعة خاصة بالتربية والتعليم، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٣٠- القاموس المحيط - مجد الدين أبادي - ط دار الفكر - بيروت – ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٣١- شبكة الإنترنت: http://svlggoo.mamg.com/t14-topic.

* * *

قائمة المحتويات

مقدمة ٣
* * * ٦
الْمَدْخَلُ (طَوْقُ النَّجَاةِ) ٧
طَوْقُ النَّجَاةِ ٧
حَاسَّةُ الشَّمِّ ١٥
حَاسَّةُ السَّمْعِ ١٧
حَاسَّةُ الْبَصَرِ ٢٢
حَاسَّةُ التَّذَوُّقِ فَتَتَمَثَّلُ فِي اللِّسَانِ ٢٥
التَّخْوِيفُ مِنَ الْغِيْبَةِ ٣٥
وَكَيْفَ يَتَخَلَّصُ الْمَرْءُ مِنَ الْغِيْبَةِ؟ ٣٧
وَقْفَةٌ صَادِقَةٌ ٤٨
* * * ٥٠
وَطَوْقُ النَّجَاةِ يُصْبِحُ فِي الْحَثِّ عَلَى الاجْتِمَاعِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْفُرْقَةِ ٥١
وَطَوْقُ النَّجَاةِ لِلأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ فِي تِلْكَ الآوِنَةِ هُوَ التَّمَسُّكُ بِخُلُقِ الْحَيَاءِ ٦٩
وَطَوْقُ النَّجَاةِ أَيْضًا يَتَمَثَّلُ فِي صَلاحِ الْقَلْبِ ٧٨
وَطَوْقُ النَّجَاةِ أَنْ تَبَرَّ وَالِدَيْكَ ٨٥
وَلاَ يُجَارِي وَالِدٌ فَعَالَهْ ٨٧
* * * ٩٤
وَطَوْقُ النَّجَاةِ أَنْ تَخْشَى اللهَ ٩٥
* * * ١١١
طَوْقُ النَّجَاةِ أَنْ تُؤَدِّ الأَمَانَةَ ١١٢
* * * ١٢٠
وَطَوْقُ النَّجَاةِ أَيْضًا أَنْ يَتَذَكَّرَ ابْنُ آدَمَ حَالَهُ وَمَآلَهُ ١٢١
وَطَوْقُ النَّجَاةِ أَنْ تَلُوذَ بِرَبِّكَ فِي كُلِّ حِينٍ ١٢٧
تَعَجُّبٌ!!! وَاسْتِفْهَامٌ؟؟؟ ١٣٩
مُعَاتَبَةٌ، وَعِتَابٌ ١٤١
* * * ١٤٦

المصادر والمراجع ١٤٨
قائمة المحتويات ١٥٢

* * *

صدر للمؤلف

- يا باغي الجنة قف مع نفسك.
- الحب على خطى الحبيب ﷺ.
- يا ليت لنا.
- سلسلة مزايا الدين الإسلامي:
  - الأمانة.
  - حسن الخلق.
  - العدل.
  - الصدق.
- طَوْقُ النَّجاة
- وسيصدر قريبًا:
  - الأَقْرَبُ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا.
  - نبذ الفرقة والاختلاف.
  - تعرف على دينك تسلم.
  - وتعرف على ربك تغنم.
  - وتعرف على نبيك ترحم.

* * *